ربانية لا رهبانية

بقلم

السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

أمين ندوة العلماء العام بلكهنؤ - الهند
وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق - سوريا

الناشر
دار الفتح للطباعة والنشر
صندوق بريد ٤٢٩٥ - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِم يقولُونَ رَبَّنَا اغفِرْ لَنَا وَلإخوانِنَا الَّذِينَ سَبَقونَا بالإيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إنَّكَ رَؤوف رَحِيم.

(الحشر ١٠)

رَبَّانِيَّة لا رَهْبَانِيَّة

الطبعة الأولى
١٣٨٦هـ – ١٩٦٦ م

كلمة بين يدي الكتاب

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، اما بعد !

فيرى القارىء الكريم على الصفحة التي تواجهه آية من القرآن الكريم ، وهي قوله تعالى :

[والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم [1]]

الآية التي تقتضي من الأجيال اللاحقة من المسلمين ان تكون منشرحة الصدر مقدِّرةً واعيةً للأجيال السابقة ولمن سبقها وتقدّمها في الإخلاص لله تعالى وطاعته وخشيته وخدمة هذا الدين ، وسدّ ثغور الإسلام والمسلمين،لا تحمل لها غلاً ولا حقداً، ولا يضيق صدرُها عن الإعتراف لها بالجميل،وعن الدّعاء والثناء

---

(١) الحشر — ١٠

والتماس العذر لها ، وغضّ البصر عن زلاتها التي لا يخلو عنها بشر ولا يُبرَّأ عنها مجتهد ، فكلٌّ من يجتهد يُخطِىء ويصيب ، وكلٌّ من يجري يكبو ويعثر ، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويُردُّ ، إلا النبي المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم .

وتقتضي هذه الآية ان نكون متورّعين في الحُكم على سلَف الأمّة وسابقيها في الإيمان والإحسان ،بل تقتضي الآداب القرآنية والتعاليم النبويّة ان نكون متورّعين في الحكم على كلّ مسلم ،لانتهوّر ولا نتسرّعُ ولا نتحمَّسُ ولا نجزِمُ حتى نكون على بيّنة من الأمر ، وحتى نستوثق ونتأكّدَ ، فقد قال الله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين [1]] .

وبعد !فهذه مقالات كُتِبَت في أوقات مختلفة وفي مناسبات مختلفة ، وبعضها حديث لم يطبع ، تجمع بينها وحدةٌ معنويةٌ ، وهي شرح فكرةٍ على أساس العلم والتجربة ، وإيضاح ضرورة او ثغرة في حياتنا وأخلاقنا ، لا بُدّ ان تُسدّ ، ودفاعٌ عن جماعة اشتدّت حولها الخصومة في هذا العصر ، ومُعظمُ من يخوض فيها ويتحمَّسُ لا يعرُفها معرفةً شخصيةً عميقة ولا يُتعب نفسه في دراستها، وقد أتاح الله للمؤلف — لحكمة يعلمها — فرصة الاتصال بها اتصالاً لا يتأتى لكلّ من عاش في مثل

---

(١) الحجرات — ٦ .

جوه العلمي وبيئته العصرية ، فسجل مشاهداته وانطباعاته وحصيلة دراسته وحياته في هذه المقالات ، مجموعة في هذا الكتاب ، ننشرها اليوم قياماً بالواجب واعترافاً بالجميل ، ودفاعاً عن جماعة تدين لها بعض الأجيال وبعض الأقطار بالدخول في الإسلام ، أو بالبقاء عليه ، راجياً من الله ثواب هذا العمل وعسى أن يحرك ساكن القلوب ، وأن يثير كامن الإيمان ، وأن يحمل بعض العقلاء والمنصفين على التفكير من جديد ، وعلى طلب المزيد ، وبالله التوفيق وله الحمد في الأولى والآخرة .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

٢٩ – ٣ – ١٣٨٦ هـ
١٩ – ٧ – ١٩٦٦ م
يوم الثلاثاء

فراغ يجب أن يملأ

جناية المصطلحات ، على الحقائق والغايات :

إن للمصطلحات والأسماء الشائعة بين الناس للأشياء جناية على الحقائق ، ولهذه الجناية قصة طويلة في كل فن ولغة ، وفي كل أدب ودين ، فإنها تولّد كائناً آخر ، تنشأ عنه الشبهات ، وتشتد حوله الخصومات ، وتتكون فيه المذاهب ، وتستخدم لها الحجج والدلائل ، ويحمى فيها وطيس الكلام والخصام ، فلو عدلنا عن هذه المصطلحات المحدثة ، وعن هذه الأسماء العُرفية ورجعنا إلى الماضي والى الكلمات التي كان يعبر بها النّاس عن هذه الحقائق في سهولة وبساطة ، والى ما كان ينطق به رجال العهد الأول والسلف الأقدمون ، انحلّت العقدة ، وهان الخطب واصطلح الناس .

ومن هذه المصطلحات والأسماء العُرفية التي شاعت بين

الناس « التصوف » ، ومن هنا ثارت أسئلة وبحوث ، وتساءل الناس ما مدلول الكلمة وما مأخذها ؟ هل هو من الصوف او من الصفـــاء او من الصفو ؟ أو هي مأخوذة من الكلمة اليونانية (صوفيا) معناها « الحكمة » ؟[1] .

ومتى حدثت هذه الكلمة ؟ ولم نعرف لها أثراً في الكتاب والسنة ، وما جاءت في كلام الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم باحسان ، ومــا عرفت في خبر القرون ، وكل ما كان هذا شأنه ، فإنه من البدع المحدثة ، وقد حميت المعركة بين أصدقائه وخصومه ، والموافقين والمعارضين، حتى تكونت بذلك مكتبة كبيرة يصعب استعراضها .

التزكية والاحسان ومكانتهما من الكتاب والسنَّة :

أمــا إذا عدلنا عن هذا المصطلح الذي نشأ وشاع في القرن الثاني[2] ورجعنا الى الكتاب والسنّة وعصر الصحابة والتابعين ، وتأملنا في القرآن والحــديث ، وجدنا القرآن ينوّه بشعبــة من شعب الدين، ومهمة من مهمات النبوة يعبر عنها بلفظ « التزكية » ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بعث الرسول الأعظم

---

(١) كلها أقوال قيلت في معنى التصوف واشتقاقه، راجع دائرة المعارف « للبستاني » وتاريخ آداب اللغة العربية « از يدان ».
(٢) كشف الظنون ج ١ ص ٢٨٠ نقلاً عن الامام القشيري .

صلى الله عليه وسلم لتحقيقها وتكميلها [هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين [1]] وهي تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل، وتخليتها من الرذائل، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم وأخلاقهم، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي، الذي ليس له نظير في التاريخ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم.

ووجدنا لسان النبوة يلهج بدرجة هي فوق درجة الإسلام والإيمان، ويعبّر عنها بلفظ « الإحسان »، ومعناها كيفية من اليقين والإستحضار، يجب ان يعمل لها العاملون، ويتنافس فيها المتنافسون، فيُسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ما الإحسان ؟ فيقول « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك [2] .

ووجدنا الشريعة، وما أُثر عن الرسول صلى اللهعليه وسلم من الأقوال والأحوال، ودوّن في الكتب ينقسم بين قسمين، أفعال وهيئات، وأمور محسوسة كقيام وقعود، وركوع

---

(1) الجمعة - ٢ .

(2) حديث متفق عليه .

وسجود ، وتلاوة وتسبيح ،وأدعية وأذكار ، وأحكام ومناسك ، قد تكفل بهـا الحديث روايةً وتدويناً ، والفقه استخراجـاً واستنباطاً ، وقام بها المحدِّثون والفقهاء ــ جزاهم الله عن الأمة ــ فحفظوا للأمة دينها وسهّلوا لها العمل به .

وقسم آخر هو كيفيات باطنية ، كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء ، وتلازم الرسول صلى الله عليه وسلم قياماً وقعوداً ، وركوعاً وسجوداً ، وداعياً وذاكراً ، وآمراً وناهياً ، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد ، وهو الإخلاص والإحتساب ، والصبر والتوكل ، والزهـد وغنى القلب ، والإيثار والسخاء ، والأدب والحياء ، والخشوع في الصلاة والتضرع ، والإبتهال في الدعاء ، والزهد في زخارف الحياة وإيثار الآخرة على العاجلة ، والشوق إلى لقاء الله ، الى غير ذلك من كيفيات باطنية وأخلاق إيمـانية هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد ، والباطن من الظـاهر ، وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام ، تجعل منها علماً مستقلاً ، وفقهاً منفرداً ، فإن سمّي العلم الذي تكفل بشرح الأول وإيضـاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله « فقه الظاهر » سمّي هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات ، ويدل على طرق الوصول اليها « فقه الباطن » .

فكان الأجدربنا أن نسمّي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية ، ويدعو إلى كمال الإيمان والحصول على درجة الإحسان ، والتخلق بالاخلاق النبوية ، واتّباع الرسول صلى الله عليه وسلم في صفاته الباطنية ، وكيفياته الإيمانية ،كان الأجدر بنا وبالمسلمين ان يسمُّوه « التزكية » او « الإحسان » او « فقه الباطن » ، ولو فعلوا ذلك لانحسم الخلاف وزال الشقاق ، وتصالح الفريقان اللذان فرّق بينهما المصطلح وباعد بينهما الإستعمال الشائع ، فالتزكية والإحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية ، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة ، يقرّ بها المسلمون جميعاً ، ولو ترك « المتصوفون » الالحاح على منهاج عمليّ خاص للوصول إلى هذه الغاية التي نعبِّر عنها بالتزكية أو الإحسان أو فقه الباطن ، فالمناهج تتغير وتتطور بحسب الزمان والمكان ، وطبائع الأجيال والظروف المحيطة بها ، وألحّوا على « الغاية » دون « الوسائل » ،لم يختلف في هذه القضية اثنان ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وخضع الجميع وأقرّوا بوجود شعبة من الدين وركن من اركان الإسلام يحسن ان نعبّر عنه بالتزكية او الإحسان او فقه الباطن ، وأقرّوا بأنه روح الشريعة ، ولبّ لباب الدّين وحاجة الحياة ، فلا كمال للدين ولا صلاح للحياة الإجتماعية ، ولا لذة — بالمعنى الحقيقي — في الحياة الفردية إلا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة .

لنقرر الحقيقة ، ونتحرر
من القيود ، وننبذ العصبية :

ومن هنا كانت جناية هذا المصطلح ، والعرف الشائع « التصوف » على هذه الحقيقة الدينية الناصعة عظيمة ، فقد حجبتها عن أنظار كثيرة ، وصدَّت فريقاً كبيراً من الناس عن سبيلها ، والحرص على تحصيلها ، ولكن كان ذلك لأسباب تاريخية يطول ذكرها ، والأمور تجري كثيراً على غير الأهواء والمصالح ، وليس لنا الآن إلا ان نقرر الحقيقة ، ونتحرر من القيود والمصطلحات ، ومن النزعات والتعصبات ، ولا نفرّ من حقيقة دينية ، يقررها الشرع ويدعو اليها الكتاب والسنة ، وتشتد اليها حاجة المجتمع والفرد لأجل مصطلح محدث ، او اسم طارىء دخيل .

جناية الدجالين والمحترفين ،
وجناية المقلدين والمخلطين :

ثم جنى على هذه الحقيقة الدينية شيء آخر ، وهو انه دخل فيها دجّالون ومحترفون ، وباطنيون وملحدون ، اتخذوها وسيلة لتحريف الدين ، وإضلال المسلمين وافساد المجتمع ونشر الإباحية ، وتزعموا هذا الفن ، وحملوا لواءه . فكان ذلك ضغثاً على إبَّالة ، وزهد فيه ونفر منه أهل الغيرة الدينية ، والمحافظون على الشريعة الإسلامية ، وطائفة اخرى من غير المحققين لم

يعرفوا روح هذه الشعبة وغايتها ، ولم يميزوا بين الغاية والوسائل فخلطوا بينها ، وألحوا على الوسائل احياناً ، وضيعوا الغاية او أدخلوا ما ليس من هذا الفن في صميم هذا الفن وصلبه ، وعدّوه من الكمالات ، ومن الغايات المطلوبة ، وعقّدوا المسألة وطوّلوها ، وجعلوا الشيء الذي يكلف به كل مسلم والذي هو لب الدين وحاجة الحياة ، لغزاً وفلسفة ورهبانية لا يجرؤ عليها ولا يطمع فيها إلا من نفض يده من أسباب الحياة ورفض الدنيا وما إليها ، ولا شك ان أولئك قليل من قليل في كل عصر وجيل ، وليست هذه دعوة الدين ولا أسوة الرسول ولا حكمة الخلق .

الراسخون في العلم والايمان ، وبعض مواقفهم ومآثرهم :

ولكن الله قيّض للمسلمين في كل عصر وجيل ، من ينفون عن هذا الدين «تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» . ويدعون إلى التزكية الخالصة من شوائب العجمية والفلسفة ، وإلى « الإحسان » و « فقه الباطن » من غير تحريف وانتحال وتأويل ، ويجددون هذا الطب النبوي لكل عصر ، وينفخون في الأمة روحاً جديدة من الإيمان والإحسان ، ويجددون صلة القلوب بالله ، والأجسام بالأرواح ، والمجتمع بالأخلاق ، والعلماء بالرّبانية ، ويوجدون في الجمهور قوة مقاومة الشهوات وفتنة المال والولد ، وزينة الحياة الدنيا ، وفي الخواص قوة مقاومة صلات الملوك وسياطهم ووعدهم ووعيدهم ، والجرأة على الجهر بكلمة حق عند سلطان

جـائر ، والإحتساب على الملوك والأمراء ، والاستهانة بالمظاهر والزخارف، والقناعة باليسير ،فيستطيع أحدهم أن يقول – وقد طُلب منه ان يقبّل يد الملك ليرضى عنه – يا مسكين والله ما أرضاه أن يقبّل يدي فضلاً عن أن أقبّل يده،يا قوم أنتم في واد أنا في واد [1]. ويقول بعضهم وقدعرض عليه ملك بلاده انيقبل شيئاً ممـا آتاه الله من الخير الكثير : (إن الله يصف هذه الدنيا بطولهـا وعرضها بالقلة والخسة ، فيقول : « قل متاع الدنيا قليل » ، وقد رزقك الله جزءاً صغيراً من قطعتها الصغيرة ، فلا أرزؤك فيه [2]). ويمد أحدهم رجله إلى أمير جبار ، ويرسل اليه هذا الأمير صرة من الذهب فيرفضها قائلاً : « إن من يمد رجله لا يمد يده » [3] » .

فضلهم في صيانة المجتمع الاسلامي من الانهيار الخلقي والروحي :

فلا شك أنه لولا هؤلاء – أصحاب النفوس المزكّاة ، الذين وصلوا الى درجة الإحسان وفقه الباطن–لانهار المجتمع الإسلامي إيماناً وروحانية ، وابتلعت موجة « المادية » الطاغية العاتية ،

---

(١) قالها الشيخ عز الدين بن عبد السلام (م ٦٦٠ ﻫ) .

(٢) قالها الشيخ المرزا مظهر الدهلوي احد كبار الشيوخ النقشبندية في القرن الثاني عشر الهجري .

(٣) هو عالم دمشق الشيخ سعيد الحلبي من رجال القرن الماضي .

البقية الباقية من إيمـان الأمة وتماسكهـا ، وضعفت صلة القلوب بالله والحيـاة بالروح ، والمجتمع بالأخلاق ، وفُقد الإخلاص والإحتساب ، وانتشرت الأمراض الباطنية ، واعتلّت القلوب والنفوس ، وفُقد الطبيب ، وتكالب الناس على حطام الدنيا ، وتنافس أهل العلم في الجـاه والمال والمناصب ، وغلب عليهم الطمع والطموح ،وتعطلت شعبة من أهم شعب النبوة ونيابتها ،وهي « تزكية النفوس ، والدعوة إلى الإحسان ، وفقه البـاطن » .

الأزمة الروحية والخلقية في بعض الأقطار الاسلامية ، سببها وعلاجها :

أنظر إلى بلاد ضعفت فيها الدعوة إلى الله والربانية وتزكية النفوس من زمان ،وندر فيها وجود الدعاة إلى الله وتجديد الصلة بالله وإصلاح الباطن- بنفوذ الحضارة الغربية او للقرب من مركزها أو بفعل عوامل أخرى ، إنك تشعر فيها بفراغ هائل لا يملؤه التبحر في العلم ولا التعمق في التفكير ، ولا فضـل من ذكاء ، ولا غنى من أدب ، ولا نسب قريب بلغة الكتاب والسنّة ، ولا نعمة من استقلال ، إنهـا أزمة روحية وخلقية لا علاج لها ، ومشكلة من أدق مشكلات المجتمع لا حلّ لهـا ، فالدهماء والشعب فريسة المادية الرعناء ، ونهامة المال العمياء والأمراض الإجتماعية والخلقية ، والمثقفون – الثقافة الدينية أو المدنية – فريسة الحرص على الجاه والمنصب والأمراض الباطنية من حسد

وشح ورياء وكبر وأنانية ، وحب الظهور ونفاق ومداهنة ، وخضوع للمادة والقوة . والحركات الإجتماعية والسياسية تفسدها الأغراض وعدم تربية النفوس وضعف القادة . والمؤسسات يفسدها الخلاف والشقاق وقلة الشعور بالمسئولية والتفكير الزائد في المادة وزيادة الرواتب . والعلماء يضعف سلطانهم اهتمامهم الزائد بالمظاهر وخوفهم الزائد من الفقر ،وسخط الخاصة والعامة ، واعتيادهم الزائد للحياة الرخيّة الناعمة . ولا علاج لكل ذلك الا في « التزكية النبوية » ، التي نطق بها القرآن وبُعث لها الرسول ، وفي « الربانية » التي طولب بها العلماء « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

فراغ يجب أن يملأ :

إنني لا ألح على منهاج خاص من التزكية درج عليه جيل من أجيال المسلمين ، واشتهر في الزمن الأخير بالتصوف — من غير حاجة إلى ذلك فقد كان في كلمات الكتاب والسنة ومصطلحاتها غنى عنه — ولا أبرىء طائفة ممن تزعَّم هذه الدعوة واضطلع بها ، من نقص في العلم والتفكير ، أو خطأ في العمل والتطبيق ، ولا أعتقد عصمتها ، فكل يخطىء ويصيب ، ولكن لا بد ان نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا ، ونسد هذا المكان الذي كان يشغله الدعاة إلى الله والربانية والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد إيمانها

وصلتهـــا بالله ، والدعوة إلى إصلاح الباطن ، والعناية بالفرد قبل المجتمع ، وأقول للمتحمسين في نقد هؤلاء الدعاة والمنكرين عليهم ، بلسان الشاعر العربي « الحطيئة » :

أقلّوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم أو سدّوا المكان الذي سدّوا

تجديد ميثاق الإسلام
وتحقيق صفات الإيمان والإحسان

الحاجة الى تجديد العهد والميثاق ، وتزكية النفوس والأخلاق :

انتفع أهل بغداد ومن أمّها من جهات بعيدة بمواعظ الشيخ عبدالقادر الجيلاني الرقيقة المرققة وبخطبه المجلجلة المدوية، وتغيرت حياة ألوف من الناس ، ولكن مجالس الدعوة والوعظ حلقات حرّة مؤقتة يؤمها أناس ويحضرونها ، ثم يتغيبون عنها ويهجرونها ، ويداوم عليها كثير من الناس ، ثم يظلون على ما هم عليه من تقاليد وعادات ، وأهواء شهوات .

اتسع العمران في الحواضر والمدن، وشغلت الحياة وحاجاتها النفوس ، فقلّ من يعتكف في المدارس وينقطع إليها ليدرس

---

(١) فصل مأخوذ من كتاب « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » للمؤلف .

العلوم الدينية ويتوسع فيها ، وهكذا أصبحت هـــذه المدارس النظامية التي تخضع لقيود وتقاليد كثيرة ، قاصرة عن إصلاح شعبي وتربية عامة ، وبقيت منحصرة في نطاق ضيق ، لا تفيد ولا تسعف إلا العدد القليل الذي يلتحق بها وينتسب إليهـا ، فلا صلة لها بالشعب ، ولا صلة للشعب بها إلا عند الإستفتـاء أو ما يشبه ذلـــك ، وإنما تعيش في عزلة عن الحياة ، وكذلك المؤلفون والمثقفون الكبار ، فالفجوة الثقافية والعقليـة بينهم وبين الشعب واسعة وعميقة لا يعبرها إلا الخاصة والشواذ ، ثم إن صلة الناس بالمدارس والعلماء والمؤلفين صلة علمية عقليـــة لا تخضع لها القلوب والنفوس ، ولا تنصبغ بها الحياة والأخلاق والطبائع إلا في النادر ، ولا يتقيد بها الناس ولا يرتبطون بها ارتباطاً روحياً إلا في النادر .

كان المسلمون في حاجة إلى دعاة وشخصيات قوية جامعـة تجمع بين تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس[1] وهكذا تخلف الرسول صلى الله عليه وسلم ـ في أمته بعد انقطاع النبوة ، وتجدد صلتها بالله والرسول ، وتجدد الميثاق الذي دخلت فيه هذه الأمة والمسلمون جميعـــاً ، عن طريق الإيمان والنطق بالشهادتين ، وما عاهدت عليه وبايعت الرسول ـ صلى الله عليه

---

(١) « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتـــلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضـــلال مبين » (سورة الجمعة) .

وسلم – مع بعد الزمان والمكان – من السمع والطاعة ومخالفة النفس والهوى والشيطان ، والتحاكم إلى الله والرسول ، والكفر بالطاغوت ، والمجاهدة في سبيل الله ، فقد تغافل عن ذلك الخلفاء ، واقتصروا على الجباية والفتوح ، وأخذوا البيعة لأنفسهم وأولادهم ، وعجز عن ذلك العلماء ، فاشتغلوا بالفتوى والوعظ والتدريس والعلم والتأليف ، واذا أرادوا ذلك لم يخضع لهم العامة ، لأنهم لا يرون فيهم – إلا النادر القليل – الإخلاص والزهد وأثر الخلافة النبوية ، وهكذا ضعف الشعور في العامة والسوقة والفلاحين والعملة ، حتى في كثير من الخاصة والمتعلمين ، بأن الإسلام عهد وميثاق ، وبيع وشراء بين العبد وربّه ، وأصبحوا أحراراً في تصرفاتهم ، جامحين عاتين في شهواتهم ، هملاً وقطعاناً لا يضبطهم راع ، وضعفت في كثير منهم الرغبة في الطاعات وبلوغ درجة الإحسان ، والحصول على نور اليقين وبشاشة الإيمان ، وتقاصرت الهمم ، وخمدت النفوس ، وأقبل الناس – إلا من عصم ربك – على اللذات والشهوات بنهامة وشره .

ضيعت الخلافة الإسلامية – كما وصفنا سالفاً – روح الخلافة وأمانة النبوة ، وأصبحت ملكاً وسياسة ، وإدارة وجباية ، فقام في نواحي المملكة الإسلامية الواسعة خلفاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – والربانيون ، يجدد الناس بدعوتهم وصحبتهم ميثاق الإسلام ، ويدخلون في السلم فقهاً وإرادة بعدما دخلوا في الإسلام وراثة وعادة ، ويستردّون بتعليمهم وتربيتهم حلاوة

الاسلام ولذة الإيمان ، ويخرجون من سلطان الهـوى ورق الشهوات وعبادة الناس ، وينشطون في العبادات والطاعات ، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله .

من أشهر هؤلاء الدعاة والمربين ، « الحسن البصري » و « الفضيل بن عياض » و « معروف الكرخي » و « الجنيد البغدادي » رحمهم الله تعالى .

وانتهى الأمر إلى القرن السادس ، وقد تباعد الزمان عن النبوة وآثارها وبركاتها ، واتسعت الدنيا ، وكثرت أسباب الغفلة واللهو ، وطال على المسلمين الأمد ، فقست قلوبهم .

نهضة الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد ، وفضله وتأثيره في الدعوة والتربية :

هنالك نهض في بغداد — دار السلام وقلب عالم الإسلام — رجل قوي الشخصية قوي الإيمان ، قوي العلم ، قوي الدعوة ، قوي التأثير ، فجدد دعوة الإيمان والاسلام الحقيقي ، والعبودية الخالصة ، وأخلاق المؤمنين المخلصين ، وحارب النفاق الذي انتشر في المجتمع الاسلامي بقوة منقطعة النظير في تاريخ الاصلاح والتجديد ، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه ، يدخل فيه المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الاسلامي ، يجددون العهد والميثاق مع الله ، ويعاهدون على أن لا يشركوا ولا يكفروا ولا يفسقوا ، ولا يبتدعوا ، ولا يظلموا ولا يستحلوا ما حرَّم الله ، ولا يتركوا ما فرض الله ، ولا يتفانوا في الدنيا ،

ولا يتناسوا الآخرة .

وقد دخل في هذا الباب – وقد فتحه الله على يد الشيخ عبد القادر – خلق لا يحصيهم إلا الله ، وصلحت أحوالهم ، وحسن إسلامهم ، وظل الشيخ يربيهم و يحاسبهم ، ويشرف عليهم وعلى تقدمهم . وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحيون يشعرون بالمسئولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الايمان على يد عبد مخلص ، وعالم رباني ، شعوراً جديداً ، وظل بينهم وبين الشيخ رباط وثيق عميق أقوى من رباط التلاميذ بالأساتذة والشيوخ ، ومن رباط الجند بالقائد ، ومن رباط الرعية بالراعي ، إنما هو رباط روحي ديني ، لا يهن ولا ينحلّ ، وإنما هو ميثاق لا ينقض ولا ينكث ، ثم يجيز الشيخ كثيراً منهم – ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية – فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله ، ويربّون النفوس ، ويحاربون الشرك والبدع ، والجاهلية والنفاق ، فتنتشر الدعوة الدينية ، وتقوم تكنات الإيمان ومدارس الاحسان ، ومرابط الجهاد ، ومجامع الأخوة ، في أنحاء العالم الاسلامي .

سر نجاح الشيخ في مهمته الاصلاحية :

وقداستطاع الشيخ عبد القادر أن يستمر في دعوته وجهاده أكثرمن نصف قرن، في بيئة اشتدّ فيها الاستبداد، وكثرت فيها الوساوس ، وشاعت فيها الوشايات والسعايات، وأخفقت فيها الدعوات السياسية ، وحورب فيها المعارضون للحكومة بقساوة

وشدة ، واحتمل الخلفاء والأمراء نقده الشديد وإنكاره على تصرفاتهم ومناهج حياتهم ، وما كان ذلك إلا لإخلاصه الذي لا يتطرق إليه الشك ، ولا ترتقي إليه شبهة ، وزهده في كل ما يحرصون عليه ويضنون به ، وبذله النصيحة والشفقة لكل من يدين بالاسلام ، بـل يتحلى بالإنسانية ، وانقطاعه للدعوة إلى الله ، والارشاد إلى معالم الحق .

دعاة الاسلام ومشاعل الايمان :

وقد كان لخلفائه وتلاميذه ، ولمن سار سيرتهم في الدعـوة وتهذيب النفوس من أعلام الدعوة وأئمة التربية في القرون الـتي تلته ، فضل كبير في المحافظة على روح الاسلام ، وشعلة الايمان ، وحماسة الدعوة والجهاد ، وقوة التمرد على الشهوات والسلطات ، ولولاهم لا بتلعت المادية التي كانت تسير في ركاب الحكومات والمدنيات هذه الأمة ، وانطفأت شرارة الحياة والحب في صدور أفرادها ، وقد كان لهؤلاء فضل كبير لنشر الاسلام في الأمصار البعيدة التي لم تغزها جيوش المسلمين ، أو لم تستطع إخضاعها للحكم الاسلامي [١] ، وانتشر بهم الاسلام في إفريقيا السوداء ، وفي أندونيسيا وجزر المحيط الهندي ، وفي الصين ، وفي الهند .

كيف خضع التتار الفاتحون لدين أمة مفتوحة ؟ :

ولما فتح التتار العالم الاسلامي في القرن السابع الهجري ،

(١) راجع كتـــاب : « دعوة الاسلام » لتوماس أرنلد الانكليزي Preaching of Islam.

وأثخنوه جراحاً وقتلاً ، ولم يتركوا فيه إلا روحاً ضعيفة ونفساً خافتاً ، وفُلّ سيف الجهاد والمقاومة ، فأصبح لا يؤثّر ولا يعمل ، وأغمده المسلمون يأساً وقنوطاً ، وآمن الناس بأن التتار لا يمكن إخضاعهم ، وأن العالم الإسلامي قد كتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الهمج ، وأن الاسلام لا مستقبل له .

قام هؤلاء الدعاة المخلصون الذين لا يزال تاريخ الدعوة والإصلاح – على إحصائه واستقصائه – يجهل أسماء كثير منهم ، يتسربون في هؤلاء الغلاظ الشداد ، يفتحون قلوبهم للإسلام ، حتى تفتحت له وأحبته ، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً ، ولم يمض على زحفهم على العالم الإسلامي وإذلالهم له كثير زمان حتى أسلم جلهم أو كلهم ، وصاروا من حماة الإسلام وحملة رايته ، وكان منهم فقهاء وزهاد ومجاهدون .

هكذا أخضعوا للإسلام من أخضع العالم الاسلامي بالأمس ، من شرقه الى غربه ، وأدخلوا أمة قهرت الأمم كلها في عصرها في دين لا يحميه سيف ، ولا يدافع عنه جيش ، وقد كانت ثلاث ديانات – هي أعظم ديانات العالم – تتنافس في اكتساب هذه القوة القاهرة للعالم : « البوذية » و « المسيحية » و « الإسلام » ، وكانت البوذية أقرب إلى فطرتها وبيئتها ، وكانت النصرانية أرفع مكانة وأقرب زلفى في مجالس سلاطينها ، ولكن الإسلام – بفضل دعاته المخلصين – انتصر على منافستيه – البوذية والنصرانية – وأسلم التتار أمة وجنساً ، وكوّنوا دولاً

إسلامية كان لكثير منها مآثر إسلامية يتجمل بها تاريخ الإسلام، وكان انتصار الإسلام على الديانتين المنافستين — البوذية والنصرانية — حادثة غريبة لا تعلل إلا بمشيئة الله تعالى وتأييده، وتفوق دعاة الاسلام في الإخلاص والروحانية على دعاة البوذية والنصرانية، يقول أرنلد :

« نهض الإسلام من ركام مجده الغابر وأنقاض عظمته التي قضى عليها التتار، وأخضع دعاة الإسلام هؤلاء المغول الوحوش الذين نثروا كنانة ظلمهم وقساوتهم على المسلمين، لقد واجه المسلمون في هذا السبيل مصاعب عظيمة، ولقوا عنتاً كبيراً، فقد كانت تنافسهم في ذلك ديانتان عظيمتان — البوذية والنصرانية — وكان دعاتهما يحرصون أشد الحرص على إقناع التتار والمغول بعقيدتهم وديانتهم .

لقد كانت منافسة هذه الديانات العظمى في إخضاع القوة القاهرة لعقيدتها، صراعاً عجيباً ينظر إليه التاريخ، وينظر إليه العالم بدهشة واستغراب، كل يحاول أن يخضع هؤلاء الوحوش القساة الذين داسوا هذه الديانات وحطموها .

لم يكن أحد يتوقع أن الإسلام سينتصر في هذه المعركة ويهزم البوذية والنصرانية، ويستأثر بالتتار، فقد كانت عاصفة هجومهم وغارتهم أشد على المسلمين منها على غيرهم، وكانت خسارتهم في ذلك أعظم من خسارة أية أمة ودولة وديانة .

لقد أصبحت العواصم الإسلامية التي كانت مهد العلوم

والحضارة ، ومقر نوابغ قارة آسيا وعباقرة العلم والفن ، خراباً يباباً ، وقتل التتار علماء المسلمين وفقهاءهم ، وأسروهم واستعبدوهم ، وقد كان ملوك التتار وأمراؤهم يعطفون على كل ديانة سوى الإسلام .

... ولكن رغم هذه المصاعب ، دان المغول والأمم الوحشية التي جاءت بعدهم بديانة أمة داستها بأقدامها واعتنقت الإسلام [1] » .

ولا شك أن الفضل في ذلك — كما صرح به « أرنلد » وغيره من المؤرخين الإسلاميين — يرجع إلى هؤلاء الدعاة المخلصين وربانيتهم ، وحرصهم على إرشاد هؤلاء الظالمين الذين سفكوا دماء المسلمين من غير رحمة ، وإنقاذهم من الوثنية والهمجية ، وهدايتهم ونجاتهم ، وانتهازهم لذلك كل فرصة .

قصة تاريخية ، تشبه أسطورة خيالية :

وقد نقل « أرنلد » قصة طريفة تدل على أسلوب دعوتهم ورقّة موعظتهم ، وتجردهم من الأنانية والكبرياء ، وكم لها من أمثال فاتت التاريخ ، وأفلتت من أعين المراقبين وأقلام المسجلين !

«أسلم سلطان (كاشغر) الذي كان يسمى «تغلق تيمورخان» (١٣٤٧ م — ١٣٦٣ م) على يد الشيخ « جمال الدين » الذي جاء

(١) دعوة الاسلام ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

من بخارى ، وكان من خبره ، أنه كان مع رفقة له في رحلته ، فمروا بأرض السلطان التي كان قد حماها للصيد وهم لا يشعرون ، وأمر بهم الملك ، فأوثقوا ، وعرضوا عليه ، وقال ، وقد استشاط غضباً : كيف دخلتم في حماي من غير اذن ؟ قال الشيخ : نحن غرباء ، ولم نشعر بأننا نمشي على أرض ممنوعة .

ولما علم الملك أنهم إيرانيون ، قال في احتقار وسخرية : حتى الكلب أفضل من الإيرانيين ، قال الشيخ : صدق الملك ، لولا أن الله أكرمنا بالدين الحق لكنّا أذل من الكلاب ، وتحير الملك ومضى للصيد ، وبقيت الكلمة تشغل فكره ، وأمر بعرضهم عليه بعد الصيد ، ولما رجع ، خلا بالشيخ وقال : فسِّر لي ما قلت لي ، وأخبرني ما تعني بالدين الحق ! وفسر الشيخ الإسلام في حماسة وقوة تفسيراً رقّ له قلب السلطان ، وصوّر الكفر تصويراً بشعاً هائلاً فزع منه السلطان ، وأيقن أنه على ضلال وخطر ، ولكن السلطان رأى أنه — لو أعلن الإسلام ، لما استطاع أن يدخل قومه في الإسلام ، ورجا الشيخ أن ينتظر ، حتى إذا سمع أنه ولي الملك ، وجلس على أريكة الحكم ، زاره ، وكانت المملكة « الجغتائية » قد توزعت في إمارات متعددة ، واستطاع « تغلق تيمور » أن يجمعها ، ويكوّن منها مملكة كبيرة ، ورجع الشيخ « جمال الدين » إلى بلاده ، ومرض مرضاً شديداً .

ولما حضرته الوفاة ، دعا ولده « رشيد الدين » وقال له :

إن « تغلق تيمور » سيكون في يوم من الأيام ملكاً عظيماً ، فإذا سمعت بذلك تزوره ، وتقرئه مني السلام ، وتذكره بما وعدني به (من اعتناق الإسلام) وكان كذلك ، فقد بويع « تغلق تيمور » بالملك ، وجلس مكان أبيه ، ودخل الشيخ « رشيد الدين » في المعسكر لينفذ وصية أبيه ، ولكنه لم يخلص إلى الملك ، فاحتال ، وبدأ يوماً يؤذن بصوت عال عند خيمة السلطان في الصباح الباكر ، فطار نوم السلطان وغضب وطلب الشيخ «رشيد الدين» ، وحضر الشيخ ، وبلّغ السلطان تحية والده ، وكان السلطان على ذكر منه ، فنطق بالشهادتين وأسلم ، ثم نشر الإسلام في رعيته ، وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التي كانت تحت سيطرة أولاد « جغتاي بن جنكيز خان [1] » .

---

(١) دعوة الاسلام لأرنلد ص ٢٥٦ .

مدرسة إخلاص وأخلاق ! [1]

رحم الله الشاعر الذي قال :

« لقـــد أظلمت البواطن فقيض الله رجلاً يجلس في زاوية بعيدة يوقد سراجاً تستضيء به القلوب والنفوس، إن الذي يقرأ القرآن بظهر الغيب ، قد فقد الحضور والخشوع ، وقد أفلس العلماء والحكماء في الإيمان واليقين »

الحياة في المراكز الدينية ، وضعف أخلاق العلماء :

شاءت حكمة الله وقـــدرته أن يقضي شيخنا عبدالقادر الرائبوري [2] [١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م] أكبر شطر من حياته

---

(١) فصل مأخوذ من كتاب «سيرة الشيخ عبدالقادر الرائبوري» نقله الى العربية الاستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الاسلامي » .

(٢) هو شيخ المؤلف ومربيه الروحي ، ومن كبار أئمة التصوف في هذا العصر .

–بعد أن بلغ أشده– في بيئات مختلفة، وطبقات مختلفة من المسلمين، وبين أحزاب دينية تختلف طرائقها ومناهج تفكيرها، إنه كان تهب فيه نفحة من نفحات الفكر المتحرر من الخارج أحياناً، فتحدث اضطراباً وقلقاً في طبعه الذكي الحساس الهادىء الساكن، إنه عاش في المراكز العلمية والدينية المختلفة في الهند، وشاهد تنافس العلماء في المناصب والجاه، وفتاوى التكفير والتفسيق، وإعجاب أهل العلم بعلمهم، وكثرة الشقاق والجدال والقيل والقال، وتوغل المدرّسين في المعقول؛ ورغبة المصلحين عن إصلاح الباطن، واستئصال الرذائل والأمراض النفسية.

الحركات الشعبية، والسرّ في سرعة زوالها، وعدم انتاجها:

نشأت خلال ذلك حركات مختلفة تصبو إلى إصلاح المسلمين وإنهاضهم، ولكنها هبّت وزمجرت كالعاصفة، وهدأت وتلاشت كالعاصفة، ورأى في زعماء هذه الحركات وقادتها من فقدان العاطفة، وانحطاط الأخلاق، وكثرة الشقاق والرغبة عن إصلاح ذواتهم، ما كانت له مفاسد ومضار لا يستهان بها، وشاهد زوال تلك الحركات ومصايرها المؤلمة، كما شاهد نشأتها الرائعة المرجوة.

إنه رأى – خلال إقامته في رائي بور – حركة الخلافة في أوج شوكتها وريعان شبابها، وكانت أقوى وأوسع وأشمل

حركة شبه دينية وشبه سياسية ، عرفتها الهند المعاصرة ، ولم يرها عن قريب فحسب ، بـــل فطن إلى أسرارها ، ودخائل ذاتها ، واطلع على مشروعاتها ومخططاتها السرية ، ولكنه شاهد إثر وفاة شيخ الهند محمود حسن –رحمه الله– أنها بعد قليل سائرة إلى الزوال ، وشعر بالتفرقة والإنشقاق في صفوفهـــا ، والفوضى الفكرية في قادتها وأعضائها ، وفقـــدان الإخلاص والتربية في القادة – باستثناء بعض الخاصة – وفقدان الطاعة والنظام في الأعضاء العاملين والمتطوعين ، وفقـــدان الإنقياد والثقة في عامة المسلمين ، وفقدان الأمانة في المسئولين ، وسمع شكاوى الناس حول هذه الامور ، وأحس تذمّرهم من هـذه الأوضاع ، حتى رجع من كل ذلك ، بنتيجة حفظها في مستودع فكره ، أن الفوضى في الخارج هي نتيجة الفوضى في الداخل ، والفراغ فيه ، وإلى ذلك أشار محمـــد إقبال في شعره حيث قال :

« الصفوف معوجة منشقـّة ، والقلوب خاوية حائرة ، والسجدة خامدة جامدة ، لا حرارة فيها ولا شوق ، ولا عجب فقد انطفأت شعلة القلب وخمدت جمرة الفؤاد » .

إنه عرف أن ضعف القيادة هو السر الوحيد وراء كل هذا الاضطراب والفوضى بين الناس ، وأن السر في ضعف الحياة وتضعضعها ، هو فقدان التربية لدى القادة والزعماء ، وجمود القلب والعاطفة . إن القادة قلب الجماهير ، ولكن قلوب هؤلاء

القادة بنفسها عدلت عن مكانها المقرر المرسوم ، وامتلأت بحب الدنيا وحب الجاه ، بدلاً من الإيمان واليقين ، والحب والعاطفة .

انحراف « الطرق » واحتراف رجالها :

ورأى بعينيه ، أن أهل الطرق والمشايخ في بلدة البنجاب ، أقاموا أسواقاً ومتاجر تباع فيها الطريقة وتشترى ، ويساوم عليها كما يساوم على السلعة في عالم المادة ، أما غذاء القلب والروح ، وزاد المعرفة والإيمان ، فلم يبق منه إلا اسمه أو رسمه ، وأن النفوس لا تجد الآن في هذه الزوايا إلا ما يغذي النفس ويشجعها ، ويمنح العقل الشاطر المحتال سنداً وسلماً يرتقي به إلى دنياه .

الفراغ الروحي عند الكتّاب والمؤلفين ، والخطباء ، والواعظين :

إنه سمع ببلاغة الخطباء الساحرة ، وخطبهم الرنانة ، واطّلع على أدب الكتاب ، ووفرة المعلومات في المؤلفات ، وبراعة أصحاب العلم والبيان ، وعاد منه بانطباع واحد ، وهو أن كل ذلك أصيب بفقدان الإخلاص ، والضعف في العمل ، وزوال الحب والعاطفة . إن هذه الفترة – أي منتصف القرن الرابع عشر – في الهند كانت فترة خطابة دينية ساحرة ، وصلت إلى

نقطة كالها ، ولكنها لم تستطع أن توقظ ركب الحياة الوسنان السكران من غفوته أو تعيده إلى سواء السبيل .

أنشد الشاعر الكبير « جكر مراد آبادي » مرة ، إحدى قصائده الرائعة الرائقة أمام الشيخ ، فلما وصل إلى هذا البيت استحسنه الشيخ كثيراً ، لأنه يمثل طبقة الوعاظ والخطباء في الهند أجمل تصوير .

« ما أروع كلمات الخطيب ، وما أجمل تعبيره ، ولكنني لا أجد في عينيه بريق الحب ولا أقرأ في وجهه نور الإيمان ، وسيما الحب والحنان »

احياء الاخلاص وتقويم الأخلاق ، حاجة العصر وفريضة الداعي :

إن دراسته الواسعة ، العميقة لهذه الأوضاع ، وتجاربه الطويلة في الحياة ، انتهت به إلى نتيجة أصبحت فيما بعد يقيناً وعقيدة ، أن مرد كل هذا الفساد في مختلف نواحي الحياة ورأس البلاء وأصل الشقاء ، هو عدم الإخلاص ، وسوء الأخلاق ، وأن أكبر واجب ومهمة في هذا العصر ، هو إحياء الإخلاص والأخلاق وتجديدهما ، وأكبر وسيلة للحصول عليهما هو الحب . والطريق إلى الحب ، الذكر والصحبة ، وعشرة عباد الله الصالحين والعارفين .

إن هذا الإخلاص والحب يحيي موات الأعمال ، وينفخ الروح في الجهود الإصلاحية ، والكفاح الإسلامي ويملؤه قوة وأملاً ونشاطاً وعزاً ، فترجع الروحانية إلى العبادات ، ويرجع النور إلى العلم وترجع القوة والبركة إلى التعليم والتدريس ،ويرجع التأثير إلى الخطابة والوعظ ، ويرجع القبول والقوة إلى الدعوة والإصلاح ، ويرجع الأثر المسلوب ، والجمال المحجوب إلى الكتابة والتأليف ، ويعود التوفيق والنجاح وحسن العاقبة إلى الجهود السياسية والتنظيمية ،ويعود الوئام والإنسجام إلى الأواصر والعلاقات ، وتعود الوحدة الضائعة ، والإئتلاف المفقود إلى الأحزاب والجماعات ، ويعود الحب والإيثار إلى الأفراد والمجتمعات ، وبالجملة ، فقد تجري المياه مجاريها ، وتعطى القوس باريها ، ويزول كل لون من الضعف ، وكل نوع من الفوضى ، وذلك هو معنى الحديث الشريف « ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب »، وهكذا الأخلاق فلا يتصور حياة متزنة ناجحة بغيرها ، ولا تفلح محاولة اجتماعية بدونها ، فكان يرى ، أن من أهم أغراض هذه الأذكار والأشغال التي توارثها القوم من صحبة الشيوخ ، والرياضات والمجاهدات ، لتقويم الأخلاق ، وإزالة الرذائل ، وبعبارة أصح ، تزكية النفس ، فلا تكفي الأذكار والأشغال مطلقاً ، وإنما اصلاح الأخلاق واجب يلزم على كل سالك .

تحدث إلى رجـــل ذاكر لم يتمالك غضبه مرة وأفلت منه الزمام ، فقال :

« الذكر فحسب ، لا يكفي للإصلاح ، بل يجب أن نعنى بإصلاح الأخـــلاق ونتوجه إلى المشايخ ليرشدونا إلى طريقة إصلاحية ، وذلك هو المقصود من بيعة الشيوخ الأحياء ، لأنهم يصلحون الأخلاق ، فخذ الغضب مثـــلاً ، فإنه داء خبيث ، ذمّته الأحاديث وشنّعته ، ولكنه لا يزول إلا بعد الرجوع إلى الشيخ والاتصال به »

وتـكلم يوماً عن اللطائف الستة وآثارها وأنوارها ، فقال :

« إن معنى جريان هذه اللطائف ، ليس أن يتحرك القلب أو يهتز ؛ أو يرى الرائي الأنوار والأضواء ، بل ، معناها ، أن تنكشف علومها وأسرارها ، فمعنى لطيفة القلب ، أن يتعلق القلب بالله ولا يسهو عنه لأي لحظة ، ويخرج منه حب الدنيا وما فيها ، ومعنى لطيفة النفس ، أن تتخلص النفس من الرذائل والعادات القبيحـــة ، وتحل محلها العادات الحسنة ، والصفات المحمودة ، وينشأ فيها العجز والاستصغار ، ويدرك الإنسان أنه أحقر عباد الله وأصغرهم شأناً ، فإذا وجدت هذه الحالة ، علمنا أنه تقدم في هذا الطريق خطوة أو بضع خطوات ، وهكذا اللطائف الأخرى ، فلا يشترط فيها الأنوار ، .. ألا ترى أنها يحصل عليها غير المسلمين أيضاً بمجاهداتهم ورياضاتهم ؟ ».

سر نجاح الدعاة ، والمجاهدين الأولين :

إنه كان ينظر قبل كل شيء إلى حياة الصحابة رضي الله عنهم وجهودهم العظيمة الخالدة التي انتشر بها الإسلام في نصف المعمورة في نصف قرن تقريباً ، وهبت ريح الإيمان في كل مكان ، فقد درس حياتهم وسيرتهم دراسة تعمّق ووعي ، وكانت مجالسه دائماً تفوح بذكرهم وعاطر أحاديثهم .

وكان له اطلاع واسع على حركة المجاهد الكبير السيد أحمد الشهيد (م ١٢٤٦ هـ) وتاريخ رجاله ، وكان له بها شغف عجيب ، وكان يقول : إنه يبدو لدارس أحوالهم انهم كانوا نموذجاً للصحابة عليهم رضوان الله في هذا العصر المتأخر ، نفس الحب والتفاني ونفس الحنين إلى الشهادة ، والرغبة عن الدنيا ، والإقبال على الآخرة ، والتضحية والإيثار والفداء والوفاء .

حيرة المخلصين الربانيين على القلوب والنفوس :

ثم إنه شاهد بأم عينيه نتائج تلك الدعوة التي حمل لواءها الشيخ عبد الرحمن خان (وهو من مريدي شيخه عبد الرحيم الرائي بوري رحمة الله عليه وأصحابه) ورأى كيف يلين له الحديد ، ويقرب إليه البعيد ، وكيف كان الفاسقون والغافلون ، يصبحون متقين أبراراً ذاكرين ، خاشعين لله بين يوم وليلة ، فعلم أن السرّ في كل ذلك هو الحب والإخلاص ، والعاطفة وحرارة القلب .

وكان يذكر أمثال هؤلاء الشيوخ ، وأصحاب القلوب الذين كانت كلماتهم تنفذ إلى قرارة النفوس ، كما ينفذ البرق في الأسلاك ، وكانت صحبتهم ومعاشرتهم تحوّل التراب تبراً ، والحصى جوهراً ، ذكر مرة شيخاً عارفاً من شيوخ بنجاب الشيخ غلام رسول [١] ، فقال :

« كان رجلاً عاشقاً ، له أشعار رائعة في حب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لصحبته تأثير عجيب ، فلا يجالسه أحد إلا ويصبح من القائمين في الليل – فضلاً عن الصلوات المكتوبة – وتدوم هذه الحالة من غير فتور وانقطاع ، لا يسمع وعظه المشركون إلا ويتوبون ويسلمون . كان يتطهر مرة في ضاحية القرية ، وهو واقف وبيده حجارة ، إذ مرت به بعض نساء الهنادك من القرية ، وهن يذهبن إلى الغابة ، قذف بالحجارة على الأرض ، وقال : « إلا الله » فلمّا سمعن ذلك ، طفقن يرددن هذه الكلمة « لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله» وما زلن يرددنها حتى وصلن إلى القرية وأسلمن ، وكان هناك شخص يلقي القمامة

---

(١) كان من علماء الحديث والعاملين به ، ومن تلاميذ الشيخ المحدث الكبير « نذير حسين » الدهلوي، يقول صاحب « نزهة الخواطر » : « كان آية ظاهرة ونعمة باهرة في كثرة العمل ، وقلة الأمل ، وتأثير الوعظ ، ما رأى الناس مثله في دياره علماً وعملا ، وحكماً في حق نفسه وقياماً في حق الله عند انتهاك حرمته ، هابته الحكومة الانكليزية فمنعته عن التذكير وعن السفر بدون الاذن » .

من بيته في المسجد ، فشكوه إلى الشيخ ، فقال : أرني إياه إذا ألقاها مرة ثانية : فلما كان هذا الوقت أروه ذلك ، فقال له : إلى متى تظل تلقي هذه القمامة يا رجل ؟ ، فقفز من داره حالاً ، وتاب على يـــده ، وأسلم ، وما حضر وعظه أحد من المشركين – ولو مرة واحـــدة – إلا وأسلم ، ولذلك منعته الحكومة الإنجليزية من الوعظ والإرشاد »

وهكذا قصّ عدة مرات – قصة الشيخ محمد الفاروقي (من شيوخ بنجاب) وحكى عجائب حبه وولعه وهيامه ، وتأثير صحبته ، فقال :

« كان الشيـــخ من كبار المحبين والعاشقين ، وكان له صوت شجي عذب ، زار قرية ، ورأى الناس اجتمعوا تحت شجرة خارج بيوتهم ، ليصغون إلى « هير رانجها [1] » للشاعر وارث شاه ، فقـال لمرافقه ، هيّا نزور هؤلاء ، ثم قال لهم ، اسمعوا لي بإنشاد هذه المنظومة ، فملك القلوب بإنشاده الحلو الشجي فطربوا له ، ثم أخذ يتلو القرآن ، ثم بدأ بالوعظ حتى بايعته القرية كلها »

وكان يقول أحيانـــاً : « أتمنى أن يكون لي لواء »

---

(١) قصة حب منظومة مشهورة في بنجاب كقصة قيس لبنى في بلاد العرب و « شيري فرهاد » في ايران .

« واركب بعيراً ، وأتلو القرآن وأعظ الناس ، حتى يقذفوني بالحجارة »

وهكذا ذكر الشيخ مرة عالماً شاباً آخر هو الشيخ أحمد الدين ، فقال :

« كان لا يمر بقرية ، إلا ويتساقط عليه أهلها ، ويضيفونه ، ولا يخلون سبيله إلا بعد ضيافة تدوم شهراً تقريباً ، زار « كنكوه » مرة،وأكثر أهلها من أسرة شيوخه، ولكنهم التاتوا حوله وما ودّعوه إلا بعد نصف شهر ، وفاضت عيونهم لفراقه .

وكانت هناك حفلة كبيرة في « ديوبند » فقدمه أحد كبار العلماء الموجودين كخطيب ، فقلت له : كيف يخطب أمام هذا الجمع من الشيوخ والعلماء ؟ ، وليس طويل الباع في العلم ، فقال إن من عباد الله من لا تشرئب إليهم الأعناق ، ولا يسترعون الانتباه ، ولكن يجري الله على أيديهم الخير الكثير ، «وهكذا كان ، فقد خطب ثلاث ساعات كاملة ، وكان لخطابته تأثير كبير في النفوس ».

كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يعتبر جميع الحركات الثائرة الناجحة ، والجهود الإصلاحية نتيجة إخلاص القادة ، وحسن نيتهم وتحمسهم، وعاطفتهم وحبهم، وكان يعتبر جماعة التبليغ، ونتائجها المدهشة ، وآثارها البارزة الباهرة في حقل الدعوة

والإصلاح ، نتيجة إخلاص مؤسسها وداعيها الأول الشيخ محمد الياس رحمه الله ، وربانيته وإشراق روحه ، وقلبه وعاطفته المتقدة التي كانت لا تهدأ لساعة ولا تفارقه للحظة واحدة ، حتى لا يقر له قرار ، ولا ينعم له بال ، فكأنه يتقلب على حسك السعدان ، أو يتلوى على الجمرة ، (وكان الشيخ معترفاً بإخلاصه وقبوله عند الله كل الاعتراف).

الصلاح قبل الاصلاح ، والفرد قبل الجماعة :

وكان لا يخفى عليه أن كلاً منا لا يستطيع أن يكون من أصحاب القلوب ، وذوي التأثير ، والنفوذ والقبول . وأن خدمة الدين ، والوعظ والإرشاد ، ليست منوطة بهذه الأحوال والآثار ، والصفات التي لا حول لنا – فيها – ولا طول ، ولكنه كان يؤمن كل الإيمان بأن الجماعة عالة على الأفراد ، والاصلاح الاجتماعي يتوقف على الاصلاح الفردي ، وأن الصلاح يجب أن يسبق الاصلاح .

وكان واثقاً كل الثقة – وقد أبدى ذلك وأعاد – بأنه لا ينبغي للإنسان إلا أن يشغل نفسه بإصلاح نفسه ويكثر من ذكر الله ، ولا يقترح طريقاً ومنهجاً من عند ذاته ، فالله سبحانه كفيل بأن ييسر له ما فيه خيره ، ويصرفه عما فيه شره ، ويخلق فيه الرغبة والميل إلى عمل يرضاه له ، ثم ينصره في هذا الأمر ،

ويسهل له كل صعب وعسير « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ».

وسئل مرة في هذا الموضوع ، فأجاب بما يلي :

« إنني أرى أن غاية الغايات ، وأولى الواجبات لكل فرد ، هو إصلاح نفسه وأن يلتزم أداء الفرائض والواجبات ، وسائر العبادات ويداوم على ذكر الله ، فاذا شاءت إرادة الله أن يقوم بخدمة ، ثبّته عليها ، وبارك فيها ، ويسّرها له ، أو يوجه إلى عمل خاص بإلهام من الله ، أو بإرشاد من شيخه ، فخيره في أن يؤدي هذه المهمة التي وكلت إليه ، أما ما دون ذلك فيحسن له القناعة بالعبادات والأذكار ، وهو يكفي لنجاته .

انظر كيف مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار حراء ، وهو أزكى الناس نفساً ، يتحنث ويعبد الله مع أنه كان يرى ما كان عليه المشركون من كفر وشرك وظلم ، حتى جاء الملك يوماً ، وقال ، « بلّغ ما أُنزل إليك » وهناك شمّر عن ساق الجد ، وقام يدعو إلى الله ، حتى أدى الأمانة وبلّغ الرسالة » .

إنني لا أعلق على رأي الآخرين في هذا الباب ، ولكنني أعتقد أن المهم هو إصلاح نفسه أولاً ، والله هو الوكيل والكفيل لتيسير أموره ، وليس المقصود من التبليغ إلا إصلاح نفسه أولاً .

تكلم عن الذكر ومراحله ، وتأثيره ، والإستقامة فيه ،

فكرر نفس المعنى .

« سئل عن الذكر هل له من نهاية ؟ فقال نعم ، يجب على المسلم ان يذكر الله ، حتى تصبح روحه ذاكرة ، فقيل له ، ما معنى ذكر الروح ؟ قال : أن يشغل باله بالله ويذكره دائماً ، ولو كان مشغولاً بأمور معاشه التجارة والزراعة مثلاً ، ولكن يركِّز همه على ذكره ، مثل من كان برأسه صداع فهو يمشي ويأكل ، ويتكلم ، ولكن لا ينسى صداعه ولا يتخلى عنه .

وسئل عن معنى الاستقامة ، فقال هو أن يصل إلى درجة من النضج والكمال لا يهدأ له بال ، ولا يقر له قرار إلا بعد أن يذكر ، فإذا ذكر الله ، حصلت له طمأنينة ، ودخلت في قلبه بشاشة ، وانبسط كل الإنبساط ، فإذا وصل الى هذه الدرجة ، أصبح وجوده كله دعوةوتبليغاً ، أما ما قبل ذلكفهي مجاهدة ، وهناك يفتح الله عليه ما شاء أن يفتح ، ويؤثر له ما رضي له خدمة وجهاداً ودعوة ، أو وعظاً أو تأليفاً أو تدريساً ونحو ذلك ، ويكون ذلك تارة بالإلهام ، وتارةبأمر الشيخ ،وتارةتنزع النفس إلى ذلك العمل من غير سبب ظاهر مباشر .

فإذا تجردت النفس ، تحلى بالاخلاص ،وحدث فرق هائل بين أشغاله الدينية اليوم وأشغاله الدينية بالأمس ، وذلك ما حكاه الامام الغزالي ، فقال :

« أنا اعلم أني ، وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت !

فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيّتي ، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يُترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه » ويقول : «إني لم أتحرك ، لكنّه حرّكني ، وإني لم أعمل ، لكنّه استعملني ، فأسأله أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي ، ويهديني ثم يهدي بي ، وأن يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، ويرزقني اجتنابه » (١)

تأثير الاخلاص والصلة بالله في الانتاج :

وما كان يريد أن يفطم الناس عما ألفوه واعتادوه من أشغالهم ونشاطهم وكفاحهم وجهودهم ، ويعيشوا في برج عاجي من الخلوة والإنعزال ، والإصلاح الشخصي ، وإنما كان يحب أن ينشأ في العامة الإخلاص ، والصلة بالله ، واتباع الشريعة على قدر مستواهم ، وفي الخاصة [العلماء المدرسين ، والخطباء ، وأهل السياسة ، ورجال العلم والأدب مثلاً] على قدر درجتهم ، ودقة موقفهم ، واتساع نشاطهم وابتلائهم وفتنتهم ، وكان يعلم حق العلم أن الإخلاص واليقين ، والإحتساب وصدق النية ، والصلة بالله صلة قوية حية ، تفتق قرائحهم وتفجر ينابيع الحكمة على لسانهم ، وتفيض البركة والنور على أقلامهم ، وتربي جهودهم المتواضعة ، وتضاعف

(١) المنقذ من الضلال . مطبعة الجامعة السورية – ١٩٥٦ م ص ١١٦ .

منافعها ، فيربحون كثيراً بجهد قليل ، وإلى ذلك أشار إقبال ، حين قال :

« لا تيأس يا اقبال من هـــذه التربة الكريمة المجدبة ، انهـا تستطيع أن تأتي بحـاصل كبير وتدرّن عليك الخير الكثير والرزق الوفير ، فاسقها بما شئت من زمزم او من دمع ودم » .

كيف وصل الشيخ الى درجة القيادة الروحية :

إن شيخنا عبد القادر الرائي بوري رحمه الله ، لم يصل إلى هـــذه المكانة ولم توكل إليه هذه الخدمة الجليلة أو هذه المهمة الخطيرة ، مهمة تربية النفوس ، والدعـوة إلى الإخلاص والأخلاق ، وتوزيع ثروة الحب والعاطفة ، واليقين والمعرفة ، إلا بمداومته على ذكر الله زمناً غير يسير ، وانكار الذات ، وفناء الأنانية وملازمة عبد من عبـاد الله المخلصين الصادقين ، وبركة طـاعته وانقياده ، فإن الشمعة لا تستضيء إلاّ بالشمعة مثلهـــا ، والصدق والإخلاص لا يوجــدان إلاّ عند المخلصين الصادقين .

التوبة والبيعة ، وأثرهما في الحياة :

فكانت نتيجة ذلك أن مركز « رائي بور [١] » أصبح بعد

(١) قرية جامعة تبعـــد من مدينة سهاون بور (في الولاية الشمالية الهندية) بنحو ٢٣ ميلا في الجهة الشمالية .

وفاة شيخه مرجعاً للطالبين ، ومنهلاً للمؤمنين المخلصين ، يأتونه زرافات ووحـدانا ، ورجالاً وركباناً ، ويبايعونه ويحبونه ، وكان يقول أحيانـاً إن هؤلاء فيهم بساطة وصدق ، وهم لا يريدون إلاّ أن يتوبُوا أمام الله ، ولذلك أراني لا أتردد في هذا الأمر ، عسى أن يُنقِـذني الله بفضل إخلاصهم وأتوب مع توبتهم .

وكان يلقن الكلمات التالية عند البيعة : —

« قولوا بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله إلا الله محمد رسول الله ، اللهم إني أتوب إليك من الكفر والشرك والبدعة ، ومن الزنا والسرقة والغيبة والكذب وترك الصلاة ومن جميـع ماقدّمت أو أخرت من المعاصي والسيئات صغيرها وكبيرها ، وأعاهدك على طاعتك في جميع أوامرك ، واتبـاع سنة نبيك ، اللهم تب عليّ واغفر ذنوبي ، ووفقني لما تحب وترضى ، وأن أتبـع نبيك صلى الله عليه وسلم » .

وكان يؤكد له بعد كلمات البيعة ، أن يلتزم أداء الصلاة بالجماعة واجتناب كل ما نهى عنه الشرع ، وذكره ذم اللذات ، وانهلا ينفع في الآخرة إلاّ العمل ، وكان يوصي بالتسبيح ، والتهليل ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والإستغفار .

إننا لا نجزم القول بأن جميـع المقرين التائبين ، كانوا أوفياء لعهدهم صادقين في وعدهم مائة في المائة ، وأن حياتهم كانت

تنقلب رأساً على عقب ، ولكن الذي لا مِراء فيه أن عدداً كبيراً من هؤلاء استفادوا بهذه البيعة ، شأن رجـال الطرق الأخرى ، وتابوا عن الشرك والبدعة ، تمسكوا بالصلوات ، وكثير منهم وُفّقوا لذكر الله ، وإصلاح حالهم ، وتزكية باطنهم والسمو بروحهم وقلبهم ، ولا يحصي عددهم إلا الله سبحانه .

وقـد سـاور الشك نفوس بعض من لا صلة لهـم بالطريقة ومعرفة بها ، في أنه يبايـع كل شخص ويفيض فيه من غير دراسة أحواله ، وتربيته أو تعليمه ، أو مراقبة حياته وتوجيهه ، ولا يميز فيه بين اثنين ، إنها شبهة ثارت حول المصلحين من أولياء الله في كل زمان ومكان ، فكان دأبهم جميعاً . ويحلو لي في هذه المناسبة ، أن أنقل ما أجاب به على هـذه الشبهة الشيخ الكبير نظام الدين الدهلوي (م ٧٢٥ هـ) وقد خطر هذا السؤال على قلب القاضي ضياء الدين البرني [المؤرخ الكبير] فاطّلع عليه الشيخ بفراسته ، ونور باطنه ، وقال :

« إنني لا أتحرى كثيراً عند البيعة ، ولا أتفقد أحوال الناس ، وذلك بسببين ، أولاً : — إنني سمعت على سبيل التواتر ، أن كثيراً من المبـايعين يتوبون عن المعصية توبة نصوحاً ، ويصلون مع الجماعة ، ويشتغلون بالنوافل والأذكار ، فاذا اشترطت فيهم أن يوجد عندهم حقيقة الطريقة اي الانقطـاع الكلي ، ولا أعطيهم خرقة التوبة والتجرد عن زخارف الدنيا ، لحرموا هذا الخير الذي أجراه الله عليهم عن طريق بعض عباده .

ثانياً : — إن شيخي أجازني للبيعة من غير أن تحدثني نفسي لي ، أو أطلبه منه أو أحمل إليه شفيعاً ، فحين أرى مسلماً مسكيناً يدخل علي ويطلب مني البيعة بكل تواضع وشوق ، ويقول لي ، إنه تاب عن جميع المعاصي ، فأقبل البيعة منه ، أملاً في صدق قوله وحرصاً على تجنبه عن المعاصي ، وقد سمعت ذلك عن كثير من الثقات » .

ونرى تصديق قوله بأحوال مريديه ، وزيارة مواطنهم ، وقد صور المؤرخ القاضي ضياء الدين المذكور تأثير الشيخ على المجتمع والحياة في عهده ، ونتائج البيعة الباهرة في الحياة العامة ، وهو يدل على ذلك التغير النفسي العميق وآثار صفاء الروح وبركاته ، لا يتأتى إلا بملازمة عبد مخلص من عباد الله ، والبيعة والتربية على يده والإرتباط به ارتباطاً كلياً .

ملتقى الطبقات المختلفة والأذواق المتنوعة ، والاتجاهات المتباينة :

إن مركز رائيبور « كان بعيداً عن الرسوم والشكليات والقيود ، وكان الشيخ بعيداً كل البعد عن الرقابة ، والمؤاخذة والعتاب ، وله اتصال برجال عدة طبقات ، اتصال حب وتقدير وعطف ، فتوجه إليه رجال يمثلون مختلف الطبقات ، والمدارس الفكرية، فيهم العلماء والسياسيون، ورجال الإجتماع ، ورجال المدارس ، وحملة الاقلام والمؤلفون ، وأبناء الطبقة

العصرية وأبناء الطبقة القديمة، وقد التقوا على صعيد واحد لسد فراغهم، وكان من بينهم، من اشتغلوا بخـدمة الدين والعلم مدة طويلة من الزمان، وأبلوا بلاءاً حسناً في الدعوة والاصلاح والتبليـغ، ومن لهم مـكانة في قيادة المسلمين السياسية، والخدمات الإجتماعية، وكانت المحافل العلمية، والسياسية في الهند ترتج بعلمهم الغزير، وخطـابتهم الساحرة، وقيادتهم الفكرية، وكانوا بأنفسهم مركز حب المسلمين وتقديرهم ولكنهم – مع كل هذه المواهب والخدمات والمؤهلات – أحسوا بضرورة الإتصال بشيخ كامل، وطبيب نطاسي يكمّل ما نقص فيهم من الإخلاص والأخلاق، وهذا الشعور بالفراغ أو النقصان، ساقهم إلى هذا المركز الروحي الكبير، وصاحبه العظيم الشيخ عبد القادر رحمه الله رحمة واسعة.

« العَارفون » ينتصرون للحُبّ والعاطفة ويثيرونهما[1]

[لم يزل العارفون المحققون، والعلماء الراسخون في كل دور من أدوار التاريخ الإسلامي ينتصرون للحب والعاطفة ويثيرونهما، ويديلون من غلو العقل والمنطق ، والخضوع الزائد للمقدمات والمصطلحات ، وجفاف القلب والروح ، ويعيدون الحياة والنشاط ، والحماس والتفاني ، واللذة والنشوة إلى هذه الأمة التي تصبح في فترات من التاريخ فريسة المادية الرعناء ، والتطرف العقلي ، والجمود العاطفي . ولنضرب لذلك مثلاً بمولانا جلال الدين الرومي الذي كان – ولا يزال – لسان هؤلاء العارفين ، وترجمانهم]

عصر ثائر على الحب والعاطفة :

قد هبت عاصفة عقلية جامحة في القرن السابع ، بعثها علم الكلام

---

(١) قطعة منقولة من كتاب « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » للمؤلف ، والعناوين الجانبية جديدة .

الذي كان الشغل الشاغل للمسلمين في القرون الأخيرة ، وكانت هذه العاصفة عاتية شديدة ، انطفأت بها كوانين القلوب ومجامرها. وإذا كانت لا تزال بقية من جمرات الحب والعاطفة ، فقد كانت كامنة في الرماد مغلوبة على أمرها ، وقد أصبح المسلمون بعدما كانوا شعلة من الحياة وجذوة من النار ، ركاماً بشرياً أو فحماً حجرياً ، بعد عهده بالنار والحرارة .

دعوة « الرومي » الى الحب والعاطفة :

في هذا الجو الهادىء الخامد هتف مولانا جلال الدين الرومي بالحب والعاطفة ، حتى هب العالم الإسلامي من نومه العميق ، ودبّت فيه الحياة .

ولقد دعا الشيخ إلى الحب دعوة سافرة ، وذكر عجائبه وتصرفاته في بسط وتفصيل فيقول :

« إن الحب ليحول المرّ حلواً ، والتراب تبراً ، والكدر صفاءاً ، والألم شفاءاً ، والسجن روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة ، وهو الذي يلين الحديد ، ويذيب الحجر ، ويبعث الميّت ، وينفخ فيه الحياة ويسوّد العبد » .

ويذكر قوة الحب فيقول :

« ان هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء ، ويصل من السمك إلى السماك ، ومن الثرى إلى الثريا .

إذا سرى هذا الحب في الجبال الراسيات ، ترنحت ورقصت طربا « فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً » .

ويذكر أن الحب غني أبي ، لا يحتفل بالملك والسلطان ، من ذاقه مرة لم يسغ شراباً ، يقول : « إن الحب غني عن العالمين ، ان كان الشغف بالمحبوب ونفي ما سواه جنوناً فهو سيد المجانين .

إنه ملك الملوك تخضع له أسرّة الملوك وتيجانهم ، ويخدمه الملوك كالعبيد ، يقول : ان الحب كامن كالنار ، ولكن الحيرة بادية ، متواضع ، ولكن نفوس الملوك الذين يملكون النفوس ، له خاشعة » .

وإذا ذكر الرومي هذا الفقر الجسور والحب الغيور ، أخذته نشوة ، ونادى بأعلى صوته « بارك الله بعبيد المادة وعباد الجسم في ملكهم وأموالهم ! لا ننازعهم في شيء ، اما نحن ، فأسارى دولة الحب التي لا تزول ولا تحول » .

« إن جميع المرضى يتمنون البرء من سقمهم ، الا ان مرضى الحب ليستزيدون المرض ، ويحبون ان يضاعف في ألمهم وحنينهم ، لم أر شراباً أحلى من هذا السم ، ولم أر صحة أفضل من هذه العلة » .

« إنها علة ، ولكنها علة تخلّص من كل علة ، فاذا أصيب بها انسان لم يصب بمرض قط ، انها صحة الروح ، بل روح الصحة ،

يتمنى أصحاب النعيم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم » كأنـــه يعارض الشاعر العربي في قوله :

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبداً ليست بذات قروح
أباها عليّ الناس ، لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح

فلو عرف هذا الرجل الذي كان ينادي على كبده ، قيمة هذه الكبد المقروحة ، لما تنزل إلى بيعها والتخلي عنهـا ، ولو عرف الناس قيمتها لا شتروها بملك الدنيا وعافية الأجسام ، فما قيمة كبد لم تقرح ؟ إنها مضغة لحم وقطعة حجر !

إكسير « الحب » وعجائبه :

إن هذا الحب البريء السامي يصل بالإنسان إلى حيث لا توصله الطاعات والمجاهدات « لم أر طاعـــة أفضل من هذا الإثم (عند من يسميه إثماً) إن الأعوام الـتي تنقضي بغيره لا تساوي ساعة من ساعات الحب » .

إن الدم الذي يسيل في سبيله لا يشك في طهارته ، إن شهيد الحب لا يحتاج إلى الغسل « إن دماء الشهداء أفضل من المـــاء الطهور ، يا لها من خطيئة ان كانت خطيئة ! يقول : إن المحبين الذين بذلوا مهجهم وأحرقوا قلوبهم لا تنفذ عليهم القوانين العامة ، ولا يخضعون للنظم السائدة » .

ويضرب الرومي لذلك مثلاً بليغاً فيقول : « إن القرية التي

خربت لا تفرض عليها الجبايات والضرائب » .

ضمان الحب ومخاطر العقل :

ويقارن بين الحب البريء والعقل الشاطر فيقول : «إن الحب تراث أبينا آدم ، أما الدهاء فهو بضاعة الشيطان ، ان الداهية الحكيم يعتمد على نفسه وعقله ، أما الحب فتفويض وتسليم ، ان العقل سباحة قد يصل بها الإنسان إلى الشاطىء وقد يغرق ، وان الحب سفينة نوح لا خوف على ركابها من الغرق » .

هذا ، وبحر الحياة هائج ليست السباحة فيه بالخطب اليسير ، فخير للإنسان أن يأوي إلى سفينة مأمونة من الغرق ، وهي سفينة الإيمان والحب ، يقول : لقد رأينا كثيراً ممن يحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر اللجي ، ولكن ما رأينا سفينة الإيمان والحب تغرق » .

ثم انه يفضل حيرة المحبين على حكمة الحكماء الباحثين ، ويحث على الحرص عليها والتنافس فيها ، لأن الحكمة ظن وقياس ، والحيرة مشاهدة وعرفان » .

لذة الحب لا تعدلها صولة المحبوب :

إنه يقول : «ليس لكل أحد أن يكون محبوباً ، فإنه يحتاج إلى صفات وفضائل لا يرزقها كل انسان ، ولكن لكل أحد أن يأخذ نصيبه في الحب وينعم به « فاذا فاتك أيها القارىء

العزيز أن تكون محبوباً ، فلا يفتك يا عزيزي أن تكون محباً ، ان لم يكن من حظك أن تكون يوسف ، فمن يمنعك من أن تكون يعقوب ؟ وما الذي يحول بينك وبين أن تكون صادق الحب ، دائم الحنين ؟ » .

ويزيد الشيخ على ذلك « ان لذة المحب لا تعدلها صولة المحبوب ، فاذا عرف المحبوبون ما ينعم به العشاق المتيمون ، والمحبون المخلصون ، لتمنوا مكانهم ، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء إلى صف المحبين البؤساء » .

الآفل الفاني لا يجدر بالحب:

ولكن إلى من يوجه هذا الحب الذي هو نور الحياة وقيمة الانسان ؟ .

« إن الحب الخالد لا يجدر إلا لخالد ، انه لا يجمل بمن كتب له الفناء والأفول ، إنه حق الحي الذي لا يموت ، الذي يفيض الحياة على كل موجود » ، ويستدل الرومي على ذلك بقصة سيدنا ابراهيم ويتمثل بقوله « لا أحب الآفلين » .

إن هذا الحب يجري من صاحبه مجرى الدم ، إن وُضع في محله وصادف أهله ، فإنه شمس لا ينتابها الأفول ، وزهرة ناضرة لا يعتريها الذبول ، عليك بهذا الحب السرمدي الذي يبقى ، ويفنى كل شيء ، الذي يدور عليك بكؤوسه التي تروي

ظمأك ! عليك بهذا الحب الذي ساد به الأنبياء وحكموا ! »

لا داعي الى اليأس :

ولكن ليس للمحب الطموح أن يشكو قصوره ويحتقر نفسه ، متعللاً بسمو المحبوب وعلو مكانته وغناه عن العالمين ، فما للتراب ورب الأرباب ؟ ! .

إن المحبوب الحقيقي هو الذي يحب أن يحب ، ويجذب إليه من انجذب « الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب » يقول مشجعاً : « لا تقل لا سبيل إلى ذلك الملك الجليل ، فأنا عبد ذليل ، لأن الملك كريم ، يدعو عبده ويسهل له السبيل » .

في الظاهر علة وعناء ، وفي الباطن دواء لكل داء :

ويعود فيتغنى بهذا الحب ويقرظه في سرور ونشوة ، ويقول : « إنه فيما يبدو للناظر علةٌ علاجها عسير ، وصاحبها في تعب وعذاب ، ولكنه اذا احتملها وثابر عليها وصل إلى المعرفة الحقيقية الأبدية » .

« إن الحب منشؤه انكسار القلب ، وجرح الفؤاد ، إنه علة لا تشبهها علة ، إن علة المحب تختلف عن كل علة ، إن الحب اصطرلاب الأسرار الالهية » .

ثم يذكر انهذه العلة، وان كانت في ذات نفسها علة، ولكنها شفاء للأسقام النفسانية والأمراض الخلقية ، إن الأمراض التي أعيت الأطباء ، وتعذر منها الشفاء ، وقطع منها المصلحون الرجاء تبرأ وتزول بلفتة من هذا الحب ، فإذا برىء منها السقيم الذي يئس من صحته ، هتف في سرور وطرب « حياك الله أيها الحب المضني! يا طبيب علتي وسقمي! يا دواء نخوتي وكبري ! يا طبيبي النطاسي ! يا مداوي الآسي ! » .

الحب شعلة تحرق ما سوى المحبوب :

هذا ، لأن الحب شعلة اذا التهبت أحرقت كل ما سواه ، فلا كبر ، ولا خيلاء ، ولا جبن ولا خوف ، ولا حزن ولا حسد ولا بخل ، ولا عيب من العيوب النفسية ، ان موجة الحب تجرف بالحشيش، وتسري في النفس سريان النار في الهشيم ، «ان الحب شعلة تحرق كل ما سوى المحبوب » ان التوحيد سيف اذا سلّه صاحبه قطع كل ما عدا الله، فحياك الله! وحياك ايها الحب الذي لا يحتمل الشرك ! » .

ويمسك مولانا بعد هذا النفس الطويل في مدح الحب ووصفه، ويقول : « ان حكاية الحب لا تنتهي ، وتفنى الدنيا ولا تنقضي عجائبه ، لأن الدنيا لها نهاية وغاية ، والحب وصف من لا يفنى ولا يموت » .

عالم القلب:

ولكن لا سبيل إلى هذا الحب إلا بالقلب الحي الفائض بالحياة

و الحرارة ، وقد طغت الناحية العقلية في عصره كما قدمنـــا ، وتخطت حدودها، وتضخمت على حساب القلب والعاطفة، فمهما استنارت العقول فقد بردت القلوب وفقدت حياتها وحرارتها ، وأصبحت المعدة قطباً تدور حوله رحى الحياة، وقد أثار الرومي حديث القلب وما له من مكانة و كرامة في حياة الإنسان ، ومـا تحويه من عجائب و كنوز ، وذكر أن الإنسان يحمل في جسمه روضة أُكلها دائم وربيعها قائم ، وانـــه يحمل في جسمه الصغير عالماً أوسع من هذا العالم المادي ، لا يخاف عليه من عدو ، ولا يطرقه لص :

« إن القلب بلد عامر مأمون ، وحصن محكم مصون ، روضة مباركة لا ينفد نعيمها ، ولا ينضب معينها، تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها » .

القلب منبـع الحياة والخلود ومصدر الفرح والسرور :

وذكر أن حدائق العالم لا تطول حياتها ، ولا تأمن الآفات والعاهات ، ولكن نخلة القلب دائمة النضارة والثمار ، ان الحدائق تبطىء في النماء ، وتسرع في الفناء ، امـا القلب فسريـع النمو ، بطيء الزوال ، « إن روضة الجسم لا تلبث أن تصبح صريمـــاً هشيماً ، فينادي صاحبها : واحسرتاه ! أما روضة القلب ، فلا تزال مخضرة مثمرة ، فينادي صاحبها : وافرحتاه ! ».

فالذي يحاول أن يحافظ على صحته وشبابـه ، ويبقى شاباً

قويـــاً ، لا تتحقق أمنيته ، والذي يعتني بقلبه ويحسن تربيته وتغذيتــه يبقى شاب الروح ، نشيط الجسم ، قرير العين ، ناعم البال ، جذلان مسروراً « عليك بالقلب حتى تدوم شاباً ، تتجلى في وجهك الأنوار فيشرق » .

« عليك بالقــلب حتى تبقى زاخر الحيوية والنضارة مثل الصهباء ، متهللاً كزهرة ناضرة ووردة باسمة » .

فرق بين قلب وقلب :

ولكن لا تغرنك كلمة « القلب » فليس هذه القطعة التي تخفق في صدرك ، وتتجمع فيها الشهوات والمطامـع ، ليس القلب هو الذي لم يذق طعم الحب ، ولم يعرف معنى اليقين ، ولا يملك شيئاً من الشوق الذي لا تتفتح زهرته ولا يشرق ليله ، فليس هو القلب ، إنما هو قطعة من حجر أو خشب .

« انه ضيق مظلم مثل قبر اليهود ، لا نصيب له من حب الملك الودود ، انه لا يشرق ولا ينير ، ولا ينشرح ولا يتسع » .

انه ليس بين هذا القلب الميت وبين القلوب الحية إلا الإشتراك في اللفظ ، والشبة في الجسم ، كما أن الماء الذي يجري في العيون الصافية والأنهار الجارية يسمى ماءاً ، والذي يختلط بالطين والوحل ويرى في المستنقعات يسمى ماءاً كذلك ، ولكن الأول يروي الظمأ وينقي الثوب ، والثاني لا تغسل منه اليد ، هذا هو الفرق

بين القلب والقلب ، ان قلوب الانبياء والأولياء لتعلو على السماء، أما قلوب أشباه بني آدم ، فهي قلوب أشباه القلوب ، وليست بقلوب ، فاذا قلت « قلبي » فانظر ماذا تقول !

« تقول : قلبي ! قلبي ! فهل تعرف ان القلب من أمانات السماء ؟ ان الحمأ لا شك يحمل ماء ، ولكنك لا ترضى أن تغسل به يدك ، لأنه ، إذا كان ماء فهو ماء يغلب عليه الطين والوحل ، فلا تسم ما يخفق في صدرك « القلب » إن القلب الذي هو أعلى من السماوات العلى ، هو قلب الأنبياء والأصفياء».

ولكنه يسلي قارئه ولا يريد أن يكسر قلبه ويثبط همته ، فيقول « ان سلعتك التي لا يرغب فيها مشتر قد اشتراها الكريم تكرماً وتفضلاً ، إنه لا يرفض قلباً من القلوب ، لأنه لا يقصد به الربح » .

من المعدة الى القلب ! :

ثم ينصح قارئه بالإنطلاق من هذا القفص الذهبي الذي يسمى « المعدة » والطيران في أجواء القلب الفسيحة ، والإطلاع على عجائب خلق الله، والتنعم بلذة الروح يقول: «ان المعدة وعبادة المادة هو الحجاب الصفيق بينك وبين ربك ، فإذا رفعت هذا الستر لم يكن بينك وبين ربك حجاب « تخط حدود المعدة وتقدم إلى قلبك ، تأتك تحيات الرحمن من غير حجاب» .

جهاد العارفين لردّ اعتبار الإنسان، وإيمانه بشرفه وكرامته [1]

مؤامرة ضد الانسانية وكرامتها، وثقة الانسان بنفسه :

لقد تواضعت الحكومات الشخصية المستبدة ، والفلسفات الخاطئة ، والأديان المحرفة، على الإستهانة بقيمة الانسان والحطّ من قدره وشرفه ، وقد نشأ — بتأثير الحروب الطاحنة التي كانت لا تكاد تنقطع، وفساد الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية — مقت شديد في الناس للحياة ، وتبرّم من امتدادها واستمرارها ، وقنوط من المستقبل ، وشعور عميق بالمهانة أو ما يسمى اليوم

(١) فصل مأخوذ من كتاب « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » للمؤلف، وقد ضم إليه العناوين الجانبية وفيه زيادة مأخوذة من الجزء الثالث لكتاب « تاريخ الدعوة والعزيمة » للمؤلف نفسه .

« بمركب النقص » وأصبح الإنسان حقيراً في عينه .

وجـــاء بعض المتصوفين العجم ، فدعوا دعوة متحمسة إلى الفناء الذي تمثله الجملة المأثورة في الأدب الصوفي « موتوا قبل أن تموتوا » وغـــلوا في إنكار الذات حتى أصبح الإعتداد بالنفس وحب الذات الذي يتوقف عليه الكفاح والحركة والنشاط ، جريمة خلقية ، وحجر عثرة في سبيل الكمال الروحي ، وقد أسرف الدعـاة والمؤلفون في الحث على اكتساب الصفـات الملكية ، والإنسلاخ من اللوازم البشرية ، حتى أصبح الإنسان يستنكف من انسانيته ، وأصبح يعتقد أن رقيه في الثورة على الإنسانية ، لافي الإحتفاظ بانسانيته ، وانه كلمـا كان ابعد من الإنسانية وأشبه بالملائكة كان أقرب إلى السعادة والكمال .

ونشأ – بتأثير هذه الأفكار والفلسفات ، وانحلال المجتمع ، وجور الحكومات – أدب متشائم ، وشعر متشائم ، ينظر إلى العالم وإلى الحياة بالمنظار الأسود ، يدعو إلى الفرار من الحياة والتشاؤم من الناس ، والنقمة على الآباء في جنايتهم على ذريتهم ، كما فعل « أبو العلاء المعري » في عصره ، وكانت نتيجة هـــذه العوامل القوية الطبيعية أن فقد الناس عامـة الثقة بنفوسهم ، والأمل في مستقبلهم ، والرغبة في حياتهم ، وأصبح الإنسان في هذا المجتمع المتبرم الضجر كاسف البال ، منكسر الخاطر ، ضعيف الإرادة ، محطم الأعصاب ، قد يحسد الحيوانات في حريتهـا ،

والجمادات في سلامتها وهدوئها ، لا يعرف لنفسه قيمة ، ولا لإنسانيته شرفاً ، ولا يعرف ذلك الجو الفسيح الذي هيأه الله لطيرانه وتحليقه ، ولا يعرف تلك الكنوز البديعــة ، والقوى الجبارة، والمواهب العظيمة التي أودعها الله في باطنه ، ولا يعرف انه قد خلق ليكون «خليفة رب العالمين» في هذا العالم الفسيح ، و « وصياً عليه » ، وأخضع له هذا الكون ، وما كان سجود الملائكة لأول بشر إلا إشارة لهــذا الخضوع ، فانهم هم الذين يتصرفون في هذا الكون بامر الله ، ويبلغون رسالاته ، فاذا خضعوا فقد خضع له الكون بالأولى .

نداءه « الرومي » بكرامة الانسان ، ودعوته الى الاعتزاز بالانسانية :

في هذا المجتمع الثائر على الإنسانية ، الذي كفر بالإنسان وقيمته ومركزه في هذا العالم ، قام مولانا «جلال الدين الرومي» يمثل الفكرة الإسلامية الصحيحة في شعره الرنان ، ويثير كرامة الإنسان المطمورة في أنقاض الأدب المتشائم ، والشعر المتراجع المنهزم ، و بدأ يتغنى بكرامة الإنسان وفضل الانسانية في حماسة وإيمان وبلاغة ، حتى دب في المجتمع دبيب الحياة ، وأصبح الانسان يعرف شرفه وكرامته ، وترنح بهذا الرجز والحداء القوي « الأدب الاسلامي » كله ، وردده الشعراء ، وضربوا على وتره ، وانطلقت في عالم التصوف موجة جديدة تستحق أن

تسمى « الإعتزاز بالإنسانية ».

يذكّر جلال الدين الرومي قراء شعره وتلاميذه، ان الله سبحانه وتعالى قد خص الإنسان بأحسن تقويم، فقد قال « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » وان هذا اللباس الفضفاض قد فُصِّل على قامة الانسان، فلا يطابق كائناً آخر، ويحث قارئه على دراسة سورة « التين » والتدبر في معانيها، وأن يحاسب لكلمة « أحسن تقويم » حساباً خاصاً فإنها ميزة للإنسان لا يشاركه فيها غيره.

ثم يزيد على ذلك، ويرجع إلى سورة « الإسراء » ويذكّر بقوله تعالى « ولقد كرّمنا بني آدم » ويقول للقارىء : (هل وجه هذا الخطاب الكريم وهذا الاسلوب من التكريم إلى السماوات والارض أو إلى الجبال؟ انه لم يوجه إلا إلى هذا الانسان الذي يستهين بقيمته ويجهل مكانته، إن الله قد توّجك – أيها الغافل – بتاج الكرامة، وخصك بقوله : « ولقد كرّمنا » وحلّى جيدك بالمنحة الخاصة فقال : « أعطيناك » كلمة لم يقلها لأحد.

واسطة العقد، وبيت القصيد :

إنه يقول : إن الانسان خلاصة هذا الكون ومجموع أوصاف العالم « يتمثل في هذا الجسم الصغير ماشئت في العالم من خيرات وكنوز، وبدائع وعجائب، إنه ذرة حقيرة انعكست فيها

الشمس ، فاذا طلعت لم يبد كوكب ، انه قطرة صغيرة انصبّ فيها بحر العلم ، وثلاثة أذرع من الجسم انطوى فيها العالم » يقول ان الإنسان غاية هذا الخلق ، لأجله خلق العالم ، وهو القطب الذي يدور حوله رحى الكون ، تحسده الكائنات ، وقد فرض الله طاعته على جميع الموجودات : « ان كل ما في هذا العالم من جمال وكمال إنما خُلق لأجلك ويطوف حولك ، أنت الذي يحسده المقرّبون ، لست في حاجة إلى جمال مستعار ، فأنت جمال الدنيا ، وواسطة العقد ، وبيت القصيد ، الانسان جوهر ، و الفلك عرض ، كل ما عداك فرع وظل ، أنت الغرض ، إن خدمتك مفروصة على جميع الكائنات ، إنّ عاراً على الجوهر أن يخضع لعرض » .

اعتراف بالتقصير في التعبير والتصوير :

ولا يقتصر على ذلك ، بل يقول : ان الانسان مظهر لصفات الله ، وهو المرآة الصادقة التي تجلت فيها آياته ، يقول : « إن الذي يتراءى في الانسان (من الكمالات والمحاسن) عكس لصفات الله ، كعكس القمر المنير في الغدير الصافي ، إن الخلق كالماء النمير تتجلى فيه صفات الله ، وينعكس فيه علمه وعدله ولطفه كما ينعكس ضوء الكوكب الدري في الماء الجاري » .

ولكنه يشعر بقصوره وعجزه في وصف الانسان وضخامة المهمة ودقتها ، ويعلن بصراحة وشجاعة :

« إذا صرّحت بقيمة هذا الممتنع [1]
لاحترقتَ واحــترق المستمع »

الانسان فوق كل مساومة وتقويم :

ثم يتساءل : هل يجرؤ أحد أن يساوم هذا الانسان الغـالي ويني نفسه بشرائه ، وهل يجوز لهذا الانسان أن يبيع نفسه — مهما تضخم ثمنها — ؟ .

ثم يندفع مخاطباً الإنسان ، ويقول في تلهف وتوجع ، وفي شيء من العتاب والأنفة : « يا مَن مِن عبيده العقل والحكمة والمقدرة ، كيف تبيع نفسك رخيصة ؟ » .

ثم يقول: لا محل للمساومة ، فقد تمت الصفقة ، وتحقق البيع : « ان الله اشترانا وخلصنا من المساومات والمقاولات إلى آخر الأبد ، فالشيء لا يباع مرتين » .

ثم يحث الانسان على أن يعرف قيمته ، ولا يرضى إلا بأكرم المشترين ، ويقول : « ابحث لك — إن كنت باحثاً — عن مشتر يطلبك ويبحث عنك ، والذي منه بدايتك وإليه نهايتك » .

---

(١) يعني به الانسان .

أشباه الرجال ، ولا رجال ،
وصورة الانسان ولا انسان . !

ويلاحظ الشاعر أن من بني آدم من لايستحق هذا الوصف، « أشباه الرجال و لا رجال » الذين هم فريسة نفوسهم ، وقتلى شهواتهم ، لا يعرفون من الانسانية الا ما يفوق فيه الحيوان ، من الشبع والرّي والشبق .

ويقول بكل صراحة : « إن هؤلاء ليسوا رجالاً ، إنما هم صور الرجال ، هؤلاء الذين يحكم عليهم الخبز ، وقد قتلت الشهوات فيهم الانسانية » ،

بحث عن الانسان الحقيقي :

وقد ندر وجود الانسان الحقيقي في عصره ، كما ندر في عصر غيره ، حتى أصبح في حكم العنقاء المغرب ، والكبريت الأحمر ، وحتى اضطر الباحثون أن يبحثوا عنه بمصباح ديوجانس ، وقد حكى الرومي حكاية لطيفة في هذا الموضوع في ديوان شعره فقال :

« رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة وقد حمل مشعلاً، كأنه يبحث عن شيء ! فقلت : يا سيدي ! تبحث عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدواب وضقت بها ذرعاً ، وخرجت أبحث عن إنسان في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم » .

شيخ الإسلام ابن تيمية كعارف بالله، ومحقق

اكتشاف جديد في شخصية ابن تيمية :

عُرف شيخ الإسلام ابن تيمية – بوجه عام – كعالم متكلم ، وفقيه جدلي ، ومحدث كبير ، ولا يتخيله الدارسون لكتاباته العلمية ومؤلفاته الجدلية ، أكثر من أنه كان عالماً ذكياً ، واسع العلم ، قوي الحجة ، غزير المادة . والذين عرفوه عن طريق التراجم التي كتبها عامة المؤرخين ، أو قاسوه على تلاميذه المتأخرين والمنتسبين اليه [1] ، لا يرون فيه شيئاً أكثر من محدِّث جافّ ، وعالم متبحر في العلوم الظاهرة ، أما ما ذكره الحافظ ابن قيم الجوزية في مدارج السالكين من أحواله وأقواله بمناسبات

---

(١) عدا تلميذه النجيب الحافظ ابن قيم الجوزية الذي بحث عن ناحية أستاذه الروحية الباطنة ، في كتابه « مدارج السالكين » شرح « منازل السائرين » لشيخ الاسلام الهروي . وأثبت فيه ، أن شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم كانا يحتلان مكانة عليا في المعرفة والروحانية ، والذوق الباطني .

شتى ، وكذلك ما ذكره العلامة الذهبي وأمثاله في ترجمته من أخلاقه وأذواقه ، وعاداته وشمائله ، وأشغاله وأعماله ، فيدل دلالة واضحة على ان شيخ الاسلام ابن تيمية يستحق بكل جدارة أن يعدّ من العارفين ورجال الله في هذه الأمة ، وهنالك ينشرح كل صدر للإعتراف ، بأنه كان يتبوّء تلك المكانة ، ويتمتع بجميع تلك الغايات التي لا تتيسر – بوجه عام – إلا برياضات شاقة ، ومجاهدات طويلة ، وتربية أئمة الفن ، ودوام الذكر والمراقبة ، وذلك ما يعبر عنه الصوفية المتأخرون بالنسبة مع الله ، « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

تنوع الوسائل ، ووحدة الغاية :

ولا يخفى على أصحاب البصيرة ، أن الذوق والمعرفة ، والإيمان الحقيقي واليقين والإخلاص ، والاستقامة ، وتزكية الباطن وتهذيب الاخلاق ، والإتّباع الكامل للسنة ، والتفاني في الشريعة غايات حقيقية مقصودة ، تتخذ لأجلها وسائل مختلفة ، وطرق متعددة ، ولا يقصر المحققون اكتسابها على طريقة واحدة ، وقد كان الطريق القوي المؤثر للحصول على هذه الغايات في فجر تاريخ الدعوة الاسلامية ، صحبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، التي لا يجهل تأثيرها وقوتها أحد .

ولما حرمت أمة الاسلام هذه النعمة ، قام خلفاء النبوة ،

وأطباء هـــذه الأمة في عصورهم بوصف عوض عنها ، وأخيراً ركـّزوا جلّ عنايتهم لأسباب مختلفة على الصحبة و كثرة الذكر ، ولها طريقة مدونة منقحة تعرف بنظام التصوف والسلوك ، غير أنه لا مساغ لإنـكار أن الحصول على هذه الغايات والمقاصد لا يتوقف على هذه الوسائل ، فإن الإيمان والإحتساب ، ومحاسبة النفس ، وتتبع السنة والاشتغال بكتب السنة والشمائل ، درساً وتدريساً ، وخدمة ونشراً مع الحب والإجلال ، وكثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وخدمة الخلق والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة والتبليـــغ بصدق النية والاحتساب ، كل ذلك (عدا الاجتباء والموهبة ، التي يخصّ بها بعض الأفراد) سبب للتقرب إلى الله وحصول النسبة معه ، إذا صدر عن إيمان واحتساب ، وحضور واهتمام ، ولا مانع أن تكون الوسائل مختلفة والطرق متعددة ، فإن الغاية واحدة ، ولا شك أن جملة أحوال شيخ الاسلام تدل بوضوح على أنه كان يتمتع بهـــذه الغاية ، وذلك ما أريـــد إيضاحه في السطور التالية :

ميزان كمال الانسان ، وآية بلوغه درجـــة الولاية والتحقيق :

ونستطيع أن نشهد لرجل بأنه كان من العارفين والمحققين الكاملين ، وممن وضـــع الله لهم القبول نظراً إلى الأحوال والأذواق ، والعادات العامة التي عاش فيها ، ولا يكون له

مقياس ظاهر أو دليل منطقى ، وقد يخطىء من رُزِق سلامة الفطرة وصفاء الذوق ، لكثرة ما يدرسه من أحوال العارفين ورجال الله ، ويلزم صحبتهم بملكة ووجدان ، يتمكن بهما من الحكم في ذلك ، ولكن هناك علامات وأحوالاً يدرك بها ، أن مستوى هذا الرجل الديني ، أرفع من مستوى عامة الناس ، وهو يتمتع بأخلاق رجال الله ، وأذواقهم ، وفهم الدين الصحيح ، مثلاً ذوق خاص للعبودية والانابة إلى الله ، وتـــذوق العباد والانهماك فيها ، ولذة الدعاء ، والابتهال والزهد ، والانقطاع عن الدنيا وازدرائها ، وسجيَّـــة السخاء والايثار ، والتواضـع ، وإنــكار الذات ، والسكينة والسرور ، والكمال في اتّباع السنة ، والقبول في الصالحين ، وشهادة العلماء له ، وتصلب أتباعه ومحبّيه في الدين ، وحسن سيرتهم وما إلى ذلك ، وبهذه المناسبة ننقل للقراء شهادات معاصري شيخ الاسلام ، وما سجله المؤرخون في كتبهم عن هذه القسمات التي سبق ذكرها .

ذوقه في العبودية والانابة الى الله :

إن الذوق الحقيقي الصحيح للعبودية والانابة إلى الله شهادة جلية على أن قلب صاحبه عامر باليقين ، ومغمور بجـــلال الله وكبريائه ، ومنوَّر بمشاهدة قدرة الله سبحانه وتعالى وجلاله ، وبشعور العجز والضعف أمامه ، وحينما يرسخ هـــذا اليقين والمشاهـــدة في الباطن ، يتجلى ذلك في الأعمال والألفاظ ، والفرق بين الحقيقة والصناعة في ذلك كالفرق بين الأصــــل

والنقل ، وهو لا يخفى على صاحب البصيرة والوجدان ، وقد قال الشاعر العربي [1] :

« ليس التكحل في العينين كالكحل »

والأحوال التي عاش فيها شيخ الاسلام ابن تيمية تشهد بأنه كان متحلياً باليقين والمشاهدة ، التي بعثت فيه صفة من الافتقار والاضطرار ، والعبودية والانابة ، وقد رُوي أنه إذا أشكلت عليه مسألة أو صعب فهم آية التجأ إلى جامع في مكان موحش ، ووضـــع جبهته على التراب وردد قوله : « يا معلم إبراهيم فهمني [2] » .

يقول العلامة الذهبي :

« لم أر مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه » ويقول : « إنه ليقف خاطري في المسألة أو الشيء أو الحالة التي تشكل علي فاستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل ، حتى ينشرح الصدر وينجلي إشكال ما أشكل » .

ولا يحول دون هذه الحالة نوع من الجلوة ، والمجالس ، وصخب الأسواق يقول : « وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدروب أو

---

(١) هو ابو الطيب المتنبي .
(٢) العقود الدرية : ص ٦ .

المدرسة ، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى ان أنال مطلوبي [1] » .

وعندما ينشأ هذا اليقين، وذوق العبودية في النفس ويتمكن في الباطن ، يشعر الانسان بعجزه وافتقاره ، وضعفه وقلة بضاعته ، ويتمثل كأنه واقف على الباب الملكي بكشكوله [2] الفارغ ويستجدي من الله رحمته وفضله .

وحياة ابن تيمية وما ذكر له من أحوال وأقوال ، ومواقف تشهد بأنه كان ينعم بنعمة الفقر وعزة التذلل ، يقول ابن قيم : إنني لم أشاهد هذه الحالة عند أي شخص بمثل ما شاهدته في شيخ الاسلام ابن تيمية ، فقد كان يقول : « مالي شيء ولا مني شيء ، ولا فيّ شيء » ، وطالما كان ينشد البيت التالي :

أنا المكدي ، أنا المكدي   وهكذا كان أبي وجدي

تذوق العبادة ، والانهماك فيها :

لا يستطيع أي إنسان أن يتذوق العبادة وينهمك فيها ما لم يشعر بلذتها ويذق طعمها [3] ، وما لم تحتل العبادة محل

---

(١) الكواكب الدرية - ص ١٤٥ .

(٢) وعاء المتسول الذي يجمع فيه رزقه .

(٣) وقد ورد في الحديث « جعلت قرة عيني في الصلاة »(رواهالنسائي) وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول : « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها » (رواه ابو داوود).

الدواء ، والغذاء والقوة ، ويصل إلى درجة تصبح الصلاة فيها لعينه قرة ولروحه مسرة . أما الشيخ ابن تيمية فيشهد معاصروه والمطلعون على أحواله بأنه كان له القدح المعلى في هذه الثروة الغالية ، وكان له ذوق خاص في العبادة ، والمناجاة والخلوة ، وكان شديد الشغف بهذه الناحية ، عظيم الانهماك فيها . جاء في الكواكب الدرية :

« وكان في ليله منفرداً عن الناس كلهم ، خالياً بربه عز وجل ، ضارعاً اليه ، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم ، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية ، وكان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة [1]

ولا شك في أن قوة أصحاب الذوق ، وأهل القلوب ونشاطهم ، إنما يقوم على الذكر والعبادة ، فاذا اختل ذلك ، انهارت قواهم ، ويشعرون كأنهم أصيبوا بفاقة ، يقول ابن قيم :

« وكان إذا صلى الفجر يجلس في مكانه ، حتى يتعالى النهار جداً ، يقول هذه غدوتي لو لم أتغد هذه الغدوة سقطت قواي [2] » .

ويرزق الله سبحانه وتعالى ، الاستقامة بعد هذا الذوق والاهتمام ، فيصبح الذكر والعبادة ، والمواظبة عليها طبيعة

---

(١) الكواكب الدرية — ص ١٥٦ .

(٢) الرد الوافر — ص ٣٦ .

الانسان . يقول العلامة الذهبي : « له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية [1] ».

الزهد في الدنيا ، وازدراؤها :

لا ينبعث الدافع الصحيح الخالص للزهد في الدنيا وازدرائها ما لم تنكشف حقيقة الدنيا بوضوح، وما لم يطرأ على المرء حال: « إن الدار الآخرة لهي الحيوان » « وما عند الله خير وأبقى ». وذلك لا يتحقق بدون اليقين والمعرفة الصحيحة والاتصال بالله ، وقد ذكر معاصروه أحوال زهد شيخ الاسلام وتجرده من الدنيا وإفتقاره إلى الله ، يقول زميله في الدراسة ومعاصره الشيخ علم الدين البرزالي المتوفى سنة ٧٣٨ هـ : « وجرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر والتقلل من الدنيا وردّ ما يفتح به عليه [2] ».

ومن انصبغ بهذه الصبغة، ورزقه الله نعمة غنى القلب الخالدة ، تلاشت في عينه مملكة كسرى وقيصر ، ورأى النظر اليها كفراناً بنعمة الله تعالى ، وجحوداً لمنته ، وهو ينشد في نشوة الحب والمعرفة ما معناه :

« إنني لا أرضى بإعطاء مُسوحي عوضاً عن حلة الملوك ، ولا

(١) الرد الوافر – ص ١٨ .
(٢) الرد الوافر – ص ٦٥.

أرضى ببيع فقري بملـــك سليمان ، إن الثروة التي نلتها في آلام الفقر لن أرضى باستبدالها بتنعم الملوك » .

ومن جهل حاله يسيء به الظن ، ويتهمُه بالطمع في الملك والحكم ، ولكنه يتأسف على جهله وفساد ذوقـــه ، ويقول : كيف يمكن النظر إلى هذا الملك الفاني بعد هذه الثروة الغالية ، والنعمة الخالدة ؟ ، وقد كانت هذه قصة الشيـخ ابن تيمية ، فقد قال له الملك الناصر ذات مرة ، سمعت بأن الناس أطاعوك ، وأنت تفكر في الحصول على الملك؛ فرد عليه الشيـخ قائلاً بصوت عال سمعه الناس الحاضرون كلهم :

« أنا افعل ذلك ؟ والله إن ملكك ، وملك المغل لا يساوي عندي فلساً [1] .

السخاء والايثار :

ومما يتصف به رجال الله ، والعاملون بالسنة النبوية بصفة خاصة ، هو السخاء والايثار ، وقـــد بسط الحافظ ابن قيِّم الكلام في أسباب شرح الصدر في كتابه « زاد المعاد » وذكر ما للإحسان إلى الخلق ، ونفعهم بالمال والجاة ، والبـــدن من التأثير العميق في انشراح الصدر ، وطيب النفس ، ونعيم

---

(١) الكواكب الدرية – ص ١٦٦.

القلب [١] .

وقد اعترف معاصروه ، وأحبته بسخائه وأثنوا على جوده وإنفاقه ،وقد جاء في (الكواكب الدرية) : « وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل[٢] ».

ويتحـدث الحافظ ابن فضل‌الله العمري ، أحد معاصري الشيـخ عن جوده وسخائه ، فيقول :

« كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فيهب ذلك بأجمعه ، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه ، لا يأخذ منه شيئاً إلا ليهبه ولا يحفظه إلا ليذهبه[٣] » .

وقد بلغ من السخاء والإيثار أن كان يخلع ما كان عليه من ثياب ، ويقدمها إلى السائل ، إذا لم يجد شيئاً آخر ،يقول الحافظ ابن فضل‌الله : « كان يتصدق ، حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه فيصل به الفقراء[٤] » .

ويقول أحد الرواة :

---

(١) راجع زاد المعاد - ج١ - ص ١٥٣ - طبع المطبعة المصرية .
(٢) الكواكب الدرية - ص ١٤٦ .
(٣) الكواكب الدرية - ص١٥٨ .
(٤) الكواكب الدرية - ص١٥٧ .

« وكان يتفضل من قوته الرغيف والرغيفين ، فيؤثر بذلك على نفسه [1] » .

ومن مواقف الإيثار المحرجة أن يعامل المرء أعداءه ومعارضيه ، برحابة الصدر ، بل بالعفو عنهم ، والإحسان إليهم ، وفوق ذلك بالدعاء والنصح ، وهذا منصب خطير لا يناله إلا من تجاوز حدود الكبر والانانية ، ونسي نفسه ، وأنعم الله عليه بنعمائه ورزقه من السكينة والسرور ما يذوب أمامه كل عداء ومعارضة ، فيجد قلبه عامراً بدافع النصح والرثاء لأعدائه ، وقد سبق أنه عندما أطلق سراحه في سنة (٧٠٩ ﻫ) مرة اخرى خلا به السلطان واستفتاه في قتل اولئك القضاة الذين قاموا بحماية « جاشنكير » وأفتوا بعزل السلطان ، وزاد له السلطان ، قائلاً : إنهم اثاروا عليك الضجة والأقاويل ، وآذوك ، فما وسع ابن تيمية إلا ان مدحهم وأثنى عليهم امام السلطان ، وشفع لهم بالعفو والصفح عنهم ، ومنعه عن قتلهم . وقد مدحه القاضي ابن مخلوف المالكي الذي كان من اشد معارضي شيخ الاسلام ومنافسيه ، بقوله : ما رأيت كريماً واسع الصدر مثل ابن تيمية ، فقد أثرنا الدولة ضده ، ولكنه عفا عنا بعد المقدرة ، حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا .

يقول تلميذه النجيب ورفيقه في كل آن : « كان يدعو

---

(١) الكواكب الدرية .

لأعدائه ، ما رأيته يدعو على واحد منهم ، وقد نعيت إليه يوماً أحـــد معارضيه الذي كان يفوق الناس في إيذائه وعدائه ، فزجرني ، وأعرض عني ، وقرأ : « إنا لله وإنا إليه راجعون » وذهب لساعته إلى منزله ، فعزى أهـــله ، وقال : اعتبروني خليفة له ، ونائباً عنه ، وأساعـدكم في كل ما تحتاجون اليه » وتحدث معهم بلطف وإكرام بعث فيهم السرور ، فبالغ في الدعاء لهم حتى تعجبوا منه » .

إن مكانة العفو والإحسان ، والشفقة والرحمة مع الأعداء ، أرفع وأسمى من مكانة الإيثار المـــالي والمادي بكثير ، إنها مكانة لا يسعد بها إلا الأولياء والصدّيقون » ،وقد كان لابن تيمية قدم راسخة في هذه المكانة ، وكأنه كان ينشد بلسان حاله ما أنشده الشاعر الرباني الذي سعد بهـــذه المكانة بالفارسية ، وهذا معناه :

« إن من ضاق صدره عن مودتي ، وقصرت يده عن معونتي كان الله في عونه وتولى جميع شئونه ، وإنّ كل من عاداني وبالغ في إيذائي لا كدّر الله صفو أوقاته ولا أراه مكروهاً في حياته وإنّ كل من فرش الأشواك في طريقي ، وضيق عليّ السبل ، ذلّل له كل طريق ،وحالفه النجاح والتوفيق » .

التواضع وانكار الذات :

إن التواضع وإنكار الذات من خصائص رجال الله الخاصة ،

وهو المنصب الأعلى في الدين ، أفضل من ألف فضيلة وألف كرامة ، ولا يبلغ الإنسان هذه المنزلة ، إلا أن تموت الأنانية ، ويتزكى قلبه من جميع الشوائب والعلائق ، وقد كان شيخ الاسلام متحلياً بهذه الفضيلة الكبرى على فضائله العلمية ، وسموه الديني والعلمي وأقواله تشهد بما كان يتصف به من التواضع والربانية وهضم النفس ، وانكار الذات . يقول الحافظ ابن قيِّم إنه كثيراً ما كان يقول : « ما لي شيء ، ولا مني شيء ، ولا فيَّ شيء » ، وإن مدحه أحد في وجهه ، قال :

« والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت ، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً [١] » .

وقد يقول لمن مدحه : « انا رجل ملة : لا رجل دولة [٢] »

وإذا بلغ الانسان إلى هذه المنزلة من العبودية ، وإنكار الذات، لا يرى له حقاً على أحد ولا يطالبه بشيء، ولا يعاتب أحداً ولا ينتقم لنفسه في اي حال ، وقد بلغ به الله إلى هذه الدرجة يقول ابن قيم :

« سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : العارف لا يرى له على احد حقاً ، ولا يشهد له على غيره فضلاً ،

---

(١) مدارج السالكين – ج١ – ص ٦٩٦ .

(٢) الكواكب الدرية – ص ١٦٤ .

ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب [1] »

ويعلم المطلعون على أحواله جيداً أنه في ذلك إنما يتحدث عن نفسه ويحكي حاله .

السكينة والسرور :

وبعد هذا الإيمان واليقين ، وهذا الإتصال الصحيح بالله تعالى والتحرر من الخلق ، وانطلاق القلب من القيود المادية ، يحصل للعارف السكينة والسرور يذوق بهما لذة النعيم والجنة في الدنيا . ويقول ابن قيم ، إن شيخ الإسلام قال مرة :

« إن في الدنيا جنة ، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة [2] » .

ولا يخفى على أهل البصائر أن عباد الله تعالى المخلصين يتحققون في الدنيا بصفة نعمة : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ويذوقون لذتها ، ويرون نموذجها في الدنيا ، ولا شك أن شيخ الاسلام ظفر بهذه النعمة ، كما ذكر أصحابه ، وقد قال مرة في حماس :

« ما يصنع أعدائي بي ؟ إن جنتي وبستاني في صدري ، إن

---

(١) مدارج السالكين – ج١ – ص ٤٩٦ .

(٢) الرد الوافر – ص ٣٦ .

رحت فهي معي لا تفارقني [1] »

وظلت نسبة السكينة والرضا هـذه ، لا تفارقه في حياته، وبعد مماته يقول ابن قيِّم :

« زرته ذات ليلة في الرؤيا ، وذكرت له بعض الأعمـال القلبية، فقال : أما أنا فطريقي الفرح والسرور به [2] ». ويقول ابن قيم في « مدارج السالكين » :

« وهكذا كانت حاله في الحياة ، يبدو ذلك على ظاهره ، وينادي به عليه حاله [3] » .

الكمال في اتباع السنة :

وتبتدىء هـذه المكانة (مكانة القبول والولاية) باتِّباع السنة ، وتنتهي بكمال اتباع السنة ، وقـد اعترف الناس جميعاً حتى الأعداء بشغف شيخ الاسلام بالسنة وانهماكه في الحديث ، ولم يكن هذا الشغف والانهماك علمياً أو نظرياً فقط ، وإنما كان يتصل بالسنة عملياً وفي الظاهر ، وقد شهد معاصروه أنهم لم يروا جـلال مكانة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإهتمام باتِّباع سنته عند أحد من العلماء ، مثـل ما رأوا ذلك عند شيخ

---

(١) الوابل الصيب – ص ٦٦ – .

(٢) اغاثة اللهفان .

(٣) مدارج السالكين .

الاسلام ابن تيمية ، يقول الحافظ سراج الدين البزاز ، وهو يقسم على الله :

« لا والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا أحرص على اتّباعه ، ونصر ما جاء به منه [1] » .

وقد كانت هذه الناحية تستحوذ عليه ، وتسيطر على قلبه ، فكل من رآه شهد قلبه بكمال اتّباعه للسنة ، وحبه العميق للرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول العلامة عماد الدين الواسطي :

« ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله ، إلا هذا الرجل ، يشهد القلب الصحيح ، أن هذا هو الإتّباع حقيقة [2] » .

قبوله في الصالحين ، وشهادة علماء عصره له :

إن ثناء حشد من الناس على رجل لا يعتبر دليلاً على قبوله عند الله ، واستقامته وعلو منزلته ، أما إذا شهد له رجال العلم والبصيرة وأصحاب الصلاح والتقوى في عصره ، فلا شك أنه يعتبر دليلاً على قبوله وعلو منزلته ، ولا بد من أن يتصف أتباعه

(١) الكواكب الدرية – ص ٩ : ١ .
(٢) جلاء العينين – ص ٨ .

ومحبوه ، وجلساؤه بالصلاح والسداد، وحسن الإعتقاد والتقوى والاهتمام بالآخرة ، ويمتازوا من أبناء عصرهم في تـــدينهم ، وحسن سيرتهم ، وهذا كان شأن شيخ الاسلام ابن تيمية ، فقد شهد بفضله وصحة اعتقاده ، وسلامة عقيدته ، ومكانته العالية ، كبار رجال العلم والبصيرة ، وأصحاب الصـــلاح والرشد في عصره، واعترفوا بعلو منزلته في ذلك، فمدحوه ، وأثنوا عليه. أما معارضوه ، فقـــد كان معظمهم ممن يتزلفون إلى الدولة ، ويطلبون الدنيا ، ويطمعون في الجاه والمنصب دائماً [١] ، يقول مؤلف « الكواكب الدرية » :

« قالوا ومن أمعن النظر ببصيرته ، لم ير عالماً من أهل أي بلد شاء موافقاً له إلا ورآه من أتبع علماء بلده للكتاب والسنة، وأشغلهم بطلب الآخرة والرغبة فيها ، وأبلغهم في الإعراض عن الدنيا ، والإهمال لها ، ولا يرى عالمـاً مخالفاً له ، منحرفاً عنه ، إلا وهو من أكبرهم نهمة في جمع الدنيا ، وأكثرهم رياءً وسمعة ، والله أعلم [٢] » .

ويقول العلامة الذهبي :

---

(١) ويستثنى من هذه الكلية من عارضه لسوء تفاهم ، او اختلفوا معه في اصول بعض المسائـــل العلمية فحسب ، وما من عام الا وقد خص منه البعض .

(٢) الكواكب الدرية — ص ١٦١ .

« وأخيف في نصر السنة المحفوظة حتى أعلى الله تعالى منارة ، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له [1] »

الفراسة والكرامات :

وبالرغم من أن الكشوف والكرامات، لا تعد جزءاً من الولاية والقبول ، ولا دليلها ، وقد أوضح المحققون ، فقالوا : « الاستقامة فوق الكرامة » ، وهي قضية لا تقبل الجدل ، ولكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى ينعم على كثير من عباده المخلصين بهذه النعمة ، فتظهر من أيديهم أو ألسنتهم وقائع تؤيد قبولهم ووجاهتهم عند الله والناس ، وقد اتفق أهل السنة على أن « كرامات الأولياء حق » ، وتؤيد ذلك بعض الوقائع والشواهد في الكتاب والسنة أيضاً ، وقد وجد في مؤلفات شيخ الإسلام إثبات هذه الحقيقة ، وتقرير هذه المسألة .

وقد شهد معاصروه وتلاميذه ومحبوه ، بتلك الوقائع التي حدثت كخرق للعادة والكرامة ، واعترف بها المتأخرون ، وقالوا لا يمكن إنكارها لكثرة ما عُرفت ونُقلت ، يقول العلامة بدر الدين العيني ، صاحب « عمدة القاريء شرح صحيح البخاري » في « تقريظ الرد الوافر » :

« وهذا الإمام مع جلالة قدره في العلوم نُقلت عنه على

---

(١) جلاء العينين — ص ٦ .

لسان جم غفير من الناس كرامات ظهرت منه بلا التباس [1] »

والفراسة الصادقة شعبة من هذه الكرامات التي يكرم الله بها عباده المتقين و كبار المؤمنين ، ويحكى لهذه الفراسة حكايات عجيبة ، ذكر الحافظ ابن قيّم [2] طائفة منها في كتابه « مدارج السالكين » وغيره من مؤلفاته الأخرى ، يقول في مدارج السالكين :

«ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام أموراً عجيبة ، وما لم نشاهده منها أعظم وأعظم ، ووقائع فراسته تستدعي سفراً ضخماً [3] .

---

(١) الرد الوافر – ص ٨٩ .
(٢) مدارج السالكين – ج٢ – ص ٢٥٠ .
(٣) فصل مأخوذ من الجزء الثاني لكتاب « تاريخ الدعوة والعزيمة » الخاص بسيرة شيخ الاسلام ابن تيمية للمؤلف ، نقله الى العربية الاستاذ سعيد الاعظمي الندوي .

دور الصوفية الإصلاحي في الهند وتأثيرهم في المجتمع

صلة الجمهور بالصوفية والتصوف، واقبالهم عليه :

إن العهد الإسلامي في الهند بدأ بهؤلاء الصوفية، وخاصة الشيخ معين الدين الأجميري، الذي أسس الطريقة الجشتية في هذه البلاد على دعائم قوية بجهاده وإخلاصه، وأقبل عليهم الناس من جميع الطبقات والفئات، يتنافسون في حبهم وصلتهم بهؤلاء المرشدين رجال الله والدعاة إليه بإخلاص وصدق وأمانة ونزاهة، وامتدت في طول البلاد وعرضها شبكة من المراكز الروحية حتى لم يبق بلد أو قرية ذات شأن إلا وفيها مركز روحي أو عدة مراكز .

إن الصلة القلبية والروحية وموجة الحب والإجلال التي كانت تغمر الناس نحو هؤلاء الشيوخ والصوفية تتجلى بالأحداث

التالية التي نسردها في هـــذا المكان من غير أن نراعي فيها الترتيب التاريخي .

كان السيد آدم البنوري دفين البقيع (م١٠٥٣هـ) يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل ، ويمشي في ركابه ألوف من الرجال ومئات من العلماء ، ولما دخل السيد في لاهور عام (١٠٥٣ هـ) كان في معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم حتى توجس شاهجهان ملك الهند منه خيفة ،فأرسل إليه بمبلغ من المال ثم قال له : « قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز » فعرف إيعاز الملك وسافر إلى الحرمين حيث مات .

وهذا الشيخ محمد معصوم (م ١٠٧٩ هـ) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندي قد بايعه وتاب على يده تسع مائـــة ألف من الرجال واستخلف في دعـــاء الخلق إلى الله وإرشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال [1] .

وكتب سيد أحمدخان مؤسس الجامعة الإسلامية في عليكره في كتابه « آثار الصناديد » يـــذكر الشيخ غلام علي الدهلوي فقال :

« لا يقل عدد المقيمين في هذه الزاوية عن خمس مائة رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم »، وهكذا كان الإقبال على المصلح الكبير السيد أحمد الشهيد (١٢٤٦ هـ) إقبالاً منقطع النظير ، انه لم يمر

---

(١) نزهة الخواطر ، ج٥ ، للشيخ عبد الحي الحسني .

ببلدة إلا وتاب عليه وبايعه عـدد كبير من الناس، حتى أن المرضى في مستشفى بنارس أرسلوا إليه يقولون : « إنا رهائن الفراش وأحلاس الدار فلا نستطيع أن نحضر ، فلو رأى السيد أن يتفضل مرة حتى نتوب على يديه لفعل » وذهب السيد وبايعهم .

وأقام في كلكته شهرين ، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً ، وتستمر البيعة إلى نصف الليل — ، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً فكان يمـد سبعة أو ثمانية من العمائم والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون الله، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثماني عشرة مرة .

تأثيرهم في الحياة العامة ، وأخلاق الشعب :

إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيـد والإخلاص واتّباع السنة ، والتوبة عن المعاصي ، وطاعة الله ورسوله ، ويحذّرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة الظلم والقسوة ، ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة والتخلي عن الرذائل (مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه)، وتزكية النفس وإصلاحها ، ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار ، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريـديه أنهم كانوا يعظون الناس

دائماً ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه ، والحنين إلى رضاه ، ورغبة شديدة لإصلاح النفس ، وتغيير الحال ، فإلى أي مدى كان تأثير أخلاقهم وإخلاصهم ، وتعليمهم وتربيتهم ومجالسهم في المجتمع والحياة ، نقدم هنا بعض الأمثلة التي تلقي الضوء على هذا الواقع التاريخي .

كتب مؤرخ الهند الشهير القاضي ضياء الدين البرني ، يذكر عهد السلطان علاء الدين ، يقول : « كان شيخ الاسلام نظام الدين وشيخ الإسلام علاء الدين وشيخ الاسلام ركن الدين من أعلام التربية الروحية والإصلاح في عهد السلطان علاء الدين ، تنوَّر بهم العالم ، وبايعهم خلق كثير لا يحصون ، وتاب على أيديهم الفسقة والفجرة ، وواظبوا على الصلاة ، وعضوا عليها بالنواجذ طول حياتهم ، ونشأ فيهم حب الدين وإجلاله ، وصحَّت توبتهم ، والتزموا العبادات كلها ، وتضاءل حب الدنيا في قلوبهم ، وذلك بتأثير أخلاقهم السامية الكريمة ، وعزوفهم عن الشهوات وترك المألوفات ، وانتشر الصدق في الناس ببركة عبادتهم وسلوكهم في الحياة ، ونشأ فيهم – بتأثير مكارم أخلاقهم ومجاهداتهم – رغبة في إصلاح أخلاقهم وتغييرها .

وكتب يقول :

« إن السنوات الأخيرة من عهد علاء الدين تمتاز بأنها كسدت فيها سوق المنكرات من الخمر والغرام والفسق والفجور والميسر

والفحشاء بجميع أنواعها ، ولم تنطق الألسن بهذه الكلمات إلاّ قليلاً وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين الناس ، وظلّ الناس يستحون من التعامل بالربا والإدخار والاكتناز علناً ، وندرت في السوق حوادث الكذب والتطفيف والغش [1] » .

وكان لهؤلاء المشائخ عناية كبيرة بالأخلاق والسلوك والمعاملات وتأدية الحقوق وقضاء الديون ، وكانوا يوصون من يدخل في بيعتهم بالعناية البالغة بهذه الأمور ، وقد أوصى الشيخ نظام الدين شيخه فريد الدين كنج شكر أن لا يدّخر وسعاً في إرضاء الخصوم وأصحاب الحقوق، وكان عليه ٢٠ جيتل (فلس) لشخص ، كما استعار كتاباً من شخص آخر فضاع ذلك الكتاب ، فلما زار دهلي وذهب إلى الشخص الأول قال « يبدو أنك قادم من عند المسلمين »، ولما زار الشخص الثاني قال « إن هذه الأخلاق ليست إلاّ نتيجة ذلك المكان الذي كنت فيه » .

إن تربية هؤلاء الصوفية والمشائخ ومجالسهم كانت تنشىء في الإنسان رغبة في إفادة الناس وحرصاً على خدمتهم ومساعدتهم .

كان السيد أحمد الشهيد أثناء سفره للحج مع ركب كبير ،

---

(١) فوائد الفؤاد ص ١ : .

لا يضيّع فرصة لخدمة الناس في هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، إن هذه الرحلة كانت عن طريق نهر « كنج » بالسفن ، وحدث أن وجدوا على ضفة مرزابور سفينة مشحونة بالقطن ، وكان صاحب القطن ينتظر الحمّالين ليحملوا ذلك القطن إلى مخازنه ، فأمر السيد أصحابه بنقل تلك الحزمات ، فهجم على السفينة مئات من الناس ، وفي دقائق وثوانٍ أفرغوا السفينة وحملوا القطن إلى مكانه ، فأعجب الناس بذلك وتهامسوا فيما بينهم قائلين « لم نر كاليوم ، إن هؤلاء ليست لهم معرفة ولا صلة بصاحب القطن ، ولم يطلبوا الأجر ، وقاموا بهذا العمل لوجه الله ، إنهم من أولياء الله من غير شك [1] » .

فضلهم في تكوين المجتمع الصالح ، وصيانته :

إن الحديث عن هؤلاء الصوفية والمشائخ بأدوارهم التاريخية والترتيب التاريخي لا محل له ههنا ، وهو يحتاج إلى مجلد ضخم ، ولكن لا شك فيه أن سهم هؤلاء المصلحين ومعلمي الأخلاق في تكوين مجتمع صالح واع في الهند (وهي قوة هـــذه البلاد المعنوية الكبرى ، ومصدر الولاة الصالحين والحكام العادلين في كل عهد ، وهو الذي منح الهند أفراداً أذكياء أكفاء في ظروف دقيقة حرجة جداً) سهم أساسي أكثر من سهم أي واحـــد من

(١) سيرة السيد أحمد الشهيد ص ٢٠٩ .

أبناء هذه البلاد وبُناتها .

وبصرف النظر عن القرون الوسطى التي تبعثرت مادتها الواسعة في تراجم المشائخ ، نكتفي هنا بذكر مصلح كبير في القرن الثالث عشر وهو السيد أحمد الشهيد وتأثيره الديني والاجتماعي كمثال لهذا التأثير والنفوذ في المجتمع والحياة ، فقد ذكر المؤرخون أنه لما أقام مع أصحابه في كلكته في طريقه إلى مكة المعظمة – واشتغل هو وبعض أصحابه من العلماء كالمصلح الكبير الشيخ اسماعيل الشهيد بالوعظ والتذكير ، وتقاطر الناس على السيد للبيعة والتوبة عن المعاصي « كان تأثير هذه المواعظ ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر في كلكته –وهي كبرى مدن الهند ومركز الانجليز –، كسدت سوقها وأقفرت الحانات ، واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة متعللين بكساد السوق ، وتعطل تجارة الخمر [1] » .

إنها كانت نتيجة أخلاق هؤلاء المصلحين والدعاة والصوفية والمشائخ وروحانيتهم ، أن اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس ، وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتّباع الهوى ، لم يكن بوسع حكومة أو مؤسسة أو قانون أن يؤثّر في

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٤٠ الطبعة الرابعة .

هذه المجموعة البشرية الضخمة ويحيطها بسياج من الأخـــلاق والمبادىء الشريفة لزمن طويل .

كلمة حق عند سلطان جائر :

وكان من مآثر هؤلاء المصلحين الروحيين الكبرى أنهم قاوموا أحياناً كثيرة اتجاهات بعض الملوك الخطرة وأنقـذوا الدولة والمجتمع من بعض الأخطار الهائلة المحدقة بها ، والتدمير الذي كان يواجهه ويهدده ، وذلك بإبداء آرائهم بصراحة ، وانتقاد التيارات الفاسدة ، وانحراف « البـــلاط » عن جادة الحق والصواب . إن تربيتهم وأمثلتهم العملية الحية ألهبت في في الناس جـــذوة الجراءة والشجاعة ، والنشاط والطموح ، وتاريخ الهند الإسلامي زاخر بهذه الأمثلة ، ان هؤلاء المشائخ غامروا مراراً بحياتهم وشرفهم ، وآثروا الموت على الحياة وعملوا بمبدأ « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » كلما دعت إليه الحاجة واقتضته الظروف .

ونقدم في هذا المكان مثالين من عهد « الملك الجبار » محمد تغلق ، يدلان على شجاعتهم وصرامتهم واستهـــانتهم بمظاهر الأبهة والغطرسة ، واحتقـــارهم للقناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

« لمـــا مر السلطان محمد تغلق بزاوية الشيخ قطب الدين

منور ، كان شيخاً كبيراً في الطريق الجشتية، يعيش في عزلة عن الناس ، لم يحضر عند السلطان لتحيته ، فطلبه السلطان في دهلي ، ولما حضر البلاط ودخل الديوان رأى الأمراء والوزراء والحكام ورجال البلاط واقفين سماطين ، متخشعين مسلحين في هيئة تنخلع منها القلوب ، وكان معه ولده نور الدين ، وكان حديث السن لم يزر « بلاط » الملك في حياته ، ففزع لهذا المنظر الغريب وامتلأ رعباً ، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلاً يا ولدي : « العظمة لله » ! يقول نور الدين إني استشعرت في نفسي قوة غريبة بعد هـذا النداء ، وزالت الهيبة من نفسي وذابت ، وبدا الجميع عندي كأنهم قطيع من ضأن أو معز ، وسأل الملك الشيخ وعاتبه قائلاً : « انـــا مررنا بزاويتكم فلم تشرفونا بزيارتكم وموعظتكم » ، فأجـاب الشيخ إن هذا الفقير لا يجدر بمقابلة الملوك ، انه يعيش في عزلة ، ويدعو للملك ولجميع المسلمين ، فعليكم أن تعذروني في هـذا الأمر ، وبعد انصرافه قال الملك لوزرائه ، إنـــه صافح كثيراً من الشيوخ والعلماء فكانت أيديهم ترتعش خوفاً واشفاقاً ، أما هذا الشيخ فما وجدت في كفه ليناً وضعفاً، وما رأيت في يده ارتعاشاً ، بل صافحني بقوة وحرارة زائدة واعتزاز نفس .

وقدَّم إليه الملك ماية ألف « تنكة » « قطعة ذهب » فقال الشيخ : سبحان الله تكفيني أُقتان من أرز وسمن، بفلس واحد، ماذا أفعل بهذه الآلاف من الروبيات ، ولكن قيل له ان الملك

يسخط اذا لم يقبل هذه الهدية ، وينقم منه ، فقبل الشيخ ألفي روبية وقسَّمها بين إخوانه وأصحابه وذوي الحاجة [1] .

والمثال الثاني للشيخ فخر الدين الزرادي ، وكان الشيخ يتحرز من مقابلة الملوك ، وكان يقول انني أرى رأسي مفصولاً عن جسمي واقعاً على بلاط الملك ، وكان يعني أنه سيقول كلمة حق يؤاخذه عليها الملك ويأمر بضرب عنقه ، فطلبه الملك يوماً وقال له ، عظني ! فقال الشيخ : إكظم الغيظ واملك غضبك وسورة النفس ، فقال الملك أي غضب وسورة نفس تعني ؟ قال سورة السباع ، فاحمر وجه الملك من فورة الغضب ولم يقل شيئاً ، ودعا بالسفرة الملوكية ودعاه الملك لتناول الغداء ، وكان يضع بعض اللقمات في فيه ، وتناول الشيخ هذا الطعام بكراهة ، وودعه الملك بعد فراغه [2] .

إن هؤلاء المشائخ و«الصوفية» ضربوا أمثلة رائعة في الشجاعة والصراحة والصدع بالحق ، كما ان الملوك الذين لم يغفروا للعلماء «جريمة» قول الحق سلكوا بالصوفية -في أغلب الأحوال- مسلكاً رفيقاً وسمحوا لهم بأداء واجبهم الديني ومزاولة نشاطهم الإسلامي ، وقد قام المشائخ بهذا الواجب في العهد الأخير وحافظوا على كرامتهم وغيرتهم وإبائهم . حضر الملك المغولي

---

(١) سير الأولياء ص ٢٥٥ – ٢٥٦ .
(٢) سير الأولياء ص ٢٧١ – ٢٧٢ .

« شاه عالم » مرة في مجلس الصوفي الكبير والشاعر الشهير الشيخ « ميردرد » ، وكان برجله وجع فمدّها قليلاً فلم يتحمل الشيخ ذلك وقال : إن هذا الأمر ينافي آداب المجلس وكرامته ،فاعتذر الملك وطلب العفو ،فقال له الشيخ : إذا كانت بكم علة فلم يكن هنالك داع لحضور هذا المجلس[1] .

الزهد في زخارف الدنيا والاستهانة بمظاهر الجاه :

ان الصوفية والمشايخ لم يقبلوا مناصب الحكم ،وهدايا الملوك والأمراء من أراضي واقطاعات وصلات وجرايات ، وامتنعوا عنها دائماً ، ونصبوا مناراً عالياً للقناعة والزهد والتوكل والمحافظة على عزة النفس وكرامتها ، عاشت بفضله في المجتمع الهندي الفتوة والهمة والطموح والثبات على جادة الحق ،وحافظوا بذلك على كرامة الإنسانية وصانوا عرضها في هذه السوق السوداء التي تباع فيها النفوس والأرواح بيع السلع ، وقد تباع بالمناداة و « المزاد العلني » .

لقد كان شعارهم وهتافهم دائماً وفي جميع الاحوال ، ما قال قائل منهم في شعر فارسي :

« لا أحب أن أبيع خرقتي المتواضعة وثيابي البالية برايات الملوك وأعلام السلاطين ، ولا أرضى بأن أهجر « فقري »

(١) كل رعنا ص ١٧١ .

حرصاً على مملكة سليمان ، إن هذا الكنز الذي اكتشفته في قلبي بفضل المجاهـدة لا أريد أن أبادله برخاء الملوك وراحتهم وتنعمهم » .

إن تاريخ التصوف في الهند حـافل بأمثلة رائعة من الزهد والقناعة والاعتزاز بالنفس والكرامـة والطموح والقنـاعة والإيثار ، لا تخلو من هذه الأمثلة طريقة صوفية في هـذه البلاد ، ونقدم هنا عدة أمثلة من القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وهو عهد رسخت فيه أقدام المادية في الهند .

« كان الشيخ شمس الدين حبيب الله المعروف بميرزا جـان جـانان الدهلوي من شيوخ الطريقة النقشبندية المجـددية (م ١١٩٥ هـ) ، قال له ملك الهند مرة إن الله أعطـاني مملكة واسعة فأرجوا أن تقبلوا منهـا شيئاً ، فقال الشيخ : إن الله تعالى قـد وصف الدنيا بالخسّة والهوان فقال « قل متاع الدنيا قليل » ، أما مملكتكم فهي ولاية صغيرة من أقاليم هذه الدنيا فلا أريد أن أرزأكم في هذا الجزء الصغير » ، وقدّم إليه مرة الأمير آصف جاه وزير المملكة المغولية في الهند عشرين ألف روبية فلم يقبلها فقال الأمير خذوها وقسموها على أهل الحاجة ، فقال إني لا أحسن هذا العمل ، فتولوا توزيعه بنفسكم فسينفد في الطريق فإن بقي منه شيء فسينفد بعد ذلك .

أراد ميرخان أمير ولاية « تونك » أن يفرض راتباً سنوياً لزاوية الشيخ غلام علي الدهلوي فكتب إليه الشيخ بيتاً معناه :

« نحن لا نهين الفقر والقناعة ، ولا نخدش كرامتها ، قل لمير خان إن الرزق مقدَّر من عند الله تعالى » .

زار حاكم كبير للحكومة الانجليزية الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي (م ١٣١٣ هـ) وقال وقد أثَّرت فيه كلمات الشيخ وموعظته البليغة ، اذا قبلتم عيّنا لكم مرتَّبــا من الحكومة ،فقال الشيخ ما أصنع بمالكم ، إنني أملك من فضل الله سريراً وإبريقين من الفخار وجرَّتين للماء ، ويأتي بعض أصحابنا بالذرة فنصنع منها الخبز ، وتطبخ زوجتي شيئاً من الخضراوات نأكل بها الخبز وفي ذلك كفاية .

يروي الأستاذ محب الله أن الأمير كلب علي خان حاكم ولاية رامبور ، أبــدى رغبته في أن يشرّفه الشيخ ، فسأله الأستــاذ المذكور عما يقدم إليه اذا حضر ، قال أهدي إليه مائة ألف روبية ، فذهب الأستاذ إلى مراد آباد وقال للشيخ إن الأمير مشتاق لرؤيتكم ويقدم إليكم مائة ألف روبية إذا زرتموه ، والشيخ يتحدث كأنه لم يسمع شيئاً مهماً ، ثم قال يا هذا احث التراب على المائة ألف ، استمع قولي ، وأنشد بيتاً معناه :

« حينما نشاهد كرمه وفضله على هذا القلب ، نجد القلب أعلى وأغلى من جام جم [1] .

---

(١) كأس ملك ايران القديم « جم » الذي يضرب بـــه المثل في الغلاء والظرافة ، ويحكى أنه كان يتراءى فيه العالم .

نشر العلم والثقافة :

العلم كان أكبر همّ هؤلاء المشايخ وبغيتهم ، إنهم حدبوا عليه وخدموه ، وكان أكثرهم صاحب ذوق أدبي وعلمي رفيع ، وكانت عقيدتهم أنه لا يمكن معرفة الله سبحانه بدون العلم ، وأن الصوفي الجاهل ألعوبة الشيطان ، ولذلك نراهم لم يستخلفوا للدعوة إلى الله من النجباء ذوي الكفاءة والإستعداد إلاّ بعد التحصيل العلمي .

والحقيقة أن الفضل في الحركة التعليمية والنهضة العلمية في الماضي يرجع إلى تشجيع هؤلاء الصوفية والمشايخ ، إما مباشرة وإما بواسطة ، وكان القاضي عبد المقتدر الكندي والشيخ أحمد التهانيسري – اللذان انتهت اليهما رئاسة التدريس في الهند – من رجال الشيخ نصيرالدين « جراغ دهلي » ، والمدرس المشهور في القرن الحادي عشر الشيخ لطف الله الكوروي الذي نفقت به سوق الدرس والتدريس إلى القرن الثالث عشر ، كان شيخاً في الطريقة الجشتية .

نحن نرى المدرسة والزاوية جنباً إلى جنب في أكثر الأدوار ، فالزاوية الرشيدية في جونبور ومدرسة الشيخ بير محمد في لكهنؤ ومدرسة الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم في دهلي ، وزاوية الشيخ رشيد أحمد في « كنكوه » أمثلة رائعة للجمع بين التثقيف العلمي والتربية الروحية والخلقية .

الكفالة والمؤاساة :

ومن مآثر هؤلاء المشايخ وزواياهم أنها كانت مأوى يأوي إليه آلاف من الناس ، ويجدون فيه طعامهم وشرابهم ومرافق حياتهم . إن هذه المائدة الملوكية الفاخرة ، كانت مائدة عامة يردها الصديق والعدو ، والقريب والبعيد ، والغني والفقير ، وكانت مائدة الشيخ نظام الدين مشهورة يضرب بها المثل في السعة وكثرة أنواع الطعام واللذة والتأنق .

وكان يحضر زاوية الشيخ سيف الدين السرهندي ألف وأربع مائة رجل يتناولون الطعام على مائدته صباح مساء ، كلٌّ حسب رغبته واقتراحه .

أما الشيخ السيد محمد سعيد الأنبالوي وهو من رجال القرن الثاني عشر فيكتب عنه مترجمون فيقولون :

« لم يكن عدد المشتغلين في زاويته أقل من خمس مائة نسمة في الزمن الأول ، وهكذا فقُل عن الوافدين إليه والزائرين له » .

زاره مرة روشن الدولة وكان أميراً من أمراء السلطان فرُّخ سير ، وقدَّم ستين ألف روبية لبناء زاويته ، فأمره الشيخ أن يترك هذا المال في مكان ويستريح ، فانصرف « روشن الدولة » ، فأرسل الشيخ إلى الفقراء ، وأرسل هذا المال إلى الأيامى والمساكين ، وأهل الحاجة في « أنباله » و« تهانيسر » و « سر هند » و « باني بت » حتى لم يبق منه فلس ، فلما أتى روشن

الدولة قال له : « لا يبلــغ الثواب في بناء العمارة ثواب خدمة ذوي الحاجة ، والفقراء الذين أحصروا في سبيل الله » ، ووصلته مرة رســـائل السلطان محمد فرخ سير والأمير روشن الدولة ، والأمير عبدالله خان ، وأمر بثلاث مائة ألف روبية فوزّعها كلها في القرى المجاورة والأشراف الساكنين فيها [1] ، وصدق الأستاذ مناظر أحسن الكيلاني إذ قال :

« إن هذه الزوايا وحدها كانت نقطة اتصال بين الأغنياء والفقراء ، وكان منزل هؤلاء الصوفية والمشايخ « بلاطاً » يدفع له السلاطين الخراج ، فقد كان يحضر ولي العهــد خضر خان عند الشيخ نظــام الدين ويستفيد منه ؛ وهكذا السلطان علاء الدين الذي كان يأتيه الخراج من الهند كلها كان مضطراً إلى ان يقدم الخراج إلى مكان آخر » .

« إن هذه الوحدة والإنسجام بين الغني والفقير أعني طبقة الصوفية والمشايخ التي كان يحضرها ويستفيد منها الأغنياء والفقراء على السواء كانت تقضي حاجات الطبقة الفقيرة ، والحقيقة أنه لم يخل دور من أدوار التاريخ الهندي ولا بلد من بلاد الهند إلاّ وقد عمل فيه الصوفية والمشايخ بالحديث النبوي المشهور « تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم » ، فكان ذلك رحمة بالفقراء والمساكين وذوي الحاجة [2] » .

---

(١) نظام التعليم والتربية (الاردو) المجلد الثاني ، للعلامة مناظر أحسن الكيلاني .

(٢) نظام التعليم والتربية ص ٢٢ .

ملاجىء انسانية :

إن تعليم هؤلاء الصوفية ومجالسهم الروحية أنشأت في الناس حب الإنسان على اختلاف الديانات والثقافات والسلالات ، وخدمته ، وإيصال النفع إليه ، ومشاركته في الهموم والآلام .

كان شعارهم وعملهم بهذا الحديث النبوي : « الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » ، كانت قلوبهم فائضة بالرحمة والمواساة للإنسانية كلها ، حدّث الشيخ نظام الدين عن نفسه مرة فقال : يأتيني رجل ويحكي لي قصته ، وفي نفسي من الهم والألم والتوجع لحاله ما لا يجده هو نفسه [١] .

وقال مرة : لا شيء أغلى وأحب يوم القيامة من المواساة وجبر القلوب المنكسرة وإدخال السرور على أصحابها [٢] .

وكانت نتيجة ذلك أن جرحى القلوب والفؤاد كانوا يجدون بلسماً لهمومهم وأحزانهم في هذه الزوايا وملجأً لهم ، إن حجر عطفهم وحبهم كان مفتوحاً لكل من هجره المجتمع أو الأسرة أو تنكّر له الحظ ، وأدبرت عنه السعادة ، إن هؤلاء الذين لم يقبلهم أبناء أسرتهم أو طردهم أولادهم بعض الأحيان كانوا يقدمون إلى هؤلاء الصوفية والمشايخ ويعيشون في أحضانهم وفي كنفهم ، ويجدون فيه كل ما افتقدوه من راحة البيت وأنس

---

(١) سير العارفين نسخة خطية .

(٢) ايضاً ص ٢٨ .

الأحبة ، ويزور هـــذه الزوايا كل رجل مهما كان نسبه أو دينه فيجد فيها الإسعاف والرفد وخلاصاً من هموم القلب وأحزانه وينال فيهـــا الغذاء والدواء ، والحب والعطف ، والتقدير والإكرام .

لما أرسل الشيخ نظام الدين شيخُه إلى دهلي قال له :

« ستكون كدوحة وارفة الظلال ، يستريح خلق الله في ظلها [1] .

والتاريخ يشهد بأنه قد استراح في ظله الوارف الوافدون من دهلي ، ومن أنحاء بعيدة سبعين سنة كوامل .

لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية أشجار كثيرة وارفة الظلال في مئات من بلاد الهند استراحت في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة .

---

(١) سير الاولياء .

بطولة وكفاح، لا بطالة واستسلام [1]

شائعة لا يؤيدها التاريخ والعلم :

إن هنالك شائعات تلقَّاها الناس بالقبول، وتناقلتها الألسن والأقلام، من غير مناقشة علمية، وتحليل ودراسة كافية.

ومن هذه المفروضات أو الإشاعات التي لا أساس لها من الصحة، أن التصوف عبارة عن البطالة والكسل والجمود، والفرار عن معترك الحياة، ولكننا ننفي هذه الأوهام حين نجد أمامنا حلقة متصلة من الحقائق تقضي على هذا الزعم الباطل، سواءً من ناحية التاريخ والواقع، أو من ناحية النفسية والعقل والبرهان.

صلة التزكية الروحية بالبطولة والكفاح :

لقد سبق لي أن قلت في كتاب « سيرة السيد أحمد الشهيد »

---

(١) مقال للمؤلف في أردو، نقله إلى العربية الاستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الاسلامي ».

ما يليق نقله هنا [1] :

ومما يجدر بالذكر ويسترعي الإنتباه ، أن تلك القوة المعنوية والروحية ، والشخصية القوية الفــــذة ، والإخلاص والربانية ، والحنان والعاطفة ، والإقدام والشهامة التي نحتاج إليها للتضحية والفداء وبذل المهج والأرواح والجهاد والكفاح ، والتجديـــد والإصلاح ، والفتح والتسخير ، لا تنشأ ولا تظهر – في أكـثر الأحيان – إلا بعد صفاء الروح وتهـــذيب النفس ، والرياضة والعبادة ، ولذلك نرى أن أكثر من قاموا بدور التجديد والجهاد في تاريخ الإسلام كانوا يتمتعون بمكانة روحية سامية ».

سرّح طرفك في هذه القرون الأخيرة، تجد فيها أمثال الأمير عبد القادر الجزائري ، والشيخ محمد أحمـد السوداني ، وسيدي أحمد الشريف السنوسي ، والسيد الإمام أحمد الشهيد الذي كان شيخ طريقة وزعيماً روحياً في جانب، ومجاهداً وقائداً ومناضلاً في جانب آخر .

الحقيقة أن هذه المجاهدات والرياضات، وتزكية النفس والصلة بالله تنشىء في الإنسان حالة عجيبة من الشوق والوجـد والحب والحنان ، تتغلغل في أحشائه ، وتستقر في أعماقـه ، حتى تراه ينشد بلسان حاله ، ويقول :

---

(١) كتاب في مجلدين ضخمين في «أردو» في سيرة القائد الكبير لحركة التجديد والجهاد السيد الامام أحمد الشهيد (١٢٠١ – ١٢٤٦هـ) .

« إني لا أملك شيئاً أفديك به ، إلا هـذه الحياة التي أعرتني إياها ، فهي منك ولك ، ومن فيضك وفضلك !

فنهاية المطـاف في هذه الرحلة الروحية والسلوك الطويل ، هي حب الشهادة ، والغاية الأخيرة من هذه المجاهدة والرياضة ، هي الجهاد [1] ».

إن اليقين والحب هما جناحان لصقر الجهاد والإجتهاد ، يُحلِّق بهما في السماء ، إنه لا يستطيع أحد أن يترّفع عن أهواء نفسه وعاداته ومألوفاته ومصالحه ومنافعه ، وأغراضه وشهواته ، ولا يمكن لأحدٍ أن يترّفع عن المستوى السافل الذي أشار الله إليه بقوله : « ولكنه أخـلد إلى الأرض واتّبع هواه » إلا إذا تجلىّ فيه اليقين والحب ، فأصبح كالبرق الخاطف في الليل البهيم ، أو كالشعلة المتأججة التي لا تخمد نارها ولا يهدأ أُوارها .

لا بد من صلة عميقة ، ولذة روحية ، في الجهاد والكفاح :

إن تجارب الحياة الطويلة تدلنا على أن المعلومات والدراسات ، أو القوانين والأشكال الفارغة لا تستطيع أن تثير في الإنسان أدنى رغبة في الإيثار والتضحية ، فضلاً عن الفداء بمهجته وروحه ، إنه لا بد له من صلة عميقة راسخة ، ولذة روحية ، والحرص على فائدة معنوية تصغّر في عينيه الفوائد المادية العاجلة ، ولعل الشاعر أنشد في هذه الحال ، أو صوّر هذا الموقف ، إذ قال :

---

(١) سيرة السيد أحمد الشهيد (الاردية) .

« إن قيمة الفداء في بلاد الحب ، هي الوصول إلى الحبيب ، فيا لها من بشرى جعلت رأسي عبئاً ثقيلاً على كواهلي وأكتافي ».

على رأس كل حركة جهاد وكفاح ، شخصية روحية قوية :

وذلك هو السرُّ في ما نرى من وجود شخصية فذة قوية ، على رأس كل حركة للجهاد والكفاح ، نفخت في المجاهدين روح الحماسة واليقين ، وحملت هذه الشرارة إلى صدور المؤمنين الآخرين ، حتى شقَّت عليهم حياة الهدوء والنعيم والترف ، وأصبحوا لا يطيقونها ، وهانت عليهم حياة الشهادة والجهاد والبطولة والتضحية ، وعزَّت عليهم الحياة كما عزَّ على غيرهم الموت ، وذلك هو النموذج الكريم المفقود ، والإمام المنشود المقصود الذي أشار إليه إقبال ، فقال :

« إن الإمام الحق وإمام العصر ، هو من يبعث فيك المقت والكراهة للحاضر والموجود ؛ يريك وجه الحبيب في مرآة الموت فينغِّص عليك الحياة ، ويبعث فيك الشعور بالخسارة ، فيبعثك بعثاً جديداً ، ويَسُنّ [1] حديدك بالفقر ، فتصبح سيفاً بتاراً لا يُبقي ولا يذر » .

لا بد من شخصية عبقرية في اوضاع غير عادية :

إن من يقود الأمم في الاوضاع العادية ، والأيام الهادئة ،

---

(١) سن السكين : أحده وشحذه وصقله .

وينفـّر الجيوش في ساعات الإنتصار ولذة الظفر ، يوجد في كل زمن ، وذلك لا يحتاج إلى شخصية عبقريّة أو يقين ممتاز ، وأما من يقودها في الساعـــات الدقيقة العصيبة من الإحتضار القومي ، والإنهيار الروحي والخُلقي ، التي لا تبعث على الأمل والطموح ، فهم أقل قليل ، ولا يتجاسر على ذلك إلا من حمل في صدره هذا النوع من اليقين ، وهـــذا اللون من الحب ، وذلك على أساس الصلة بالله ، والإعتماد على الله ، والقوة المعنوية الروحيّة . وكلما تغلبت على الأمة هذه الاوضاع الفاسدة ، ودهمتها الليالي القاتمة ، وبدا التغيير محالاً ، أسعفها رجل من رجال الحب واليقين ، وغيَّر تيّار الحياة بعاطفته القوية الغامرة وإقدامه الطموح البعيد ، فكان ما قال الله تعالى ... « يخرج الحي من الميِّت » « ويحيي الأرض بعد موتها ».

خضوع التتار الفاتحين للاسلام بفضل اهل القلوب والدعاة الى الله :

لما هجم التتار على العــالم الاسلامي ، وداسوه تحت أقدامهم وتقلـّص ظلُّ الخلافة العباسيّة ، وقـُضي على حكومة خوارزم شاه التي كانت الحكومة الإسلامية الوحيدة في ذلك العصر ، إستولى اليأس القاتل على العالم الإسلامي كله ، وعلموا أن الانتصار عليهم ضرب من المحال ، وتردّدت هذه العبارة على ألسنة الناس : « إذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تـُصدّق » ، هنـــالك برز في الميدان بعض رجال الله وأصحاب القلوب ولم ييأسوا من هـــذه

الأوضاع ، واستمرّوا في مهمتهم وجهادهم حتى أسلم بعض ملوك التتار على أيديهم ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

مأثرة الشيخ احمد السرهندي ، ومحافظته على الاسلام في الهند :

أما في الهند فقد اتجهت حكومـــة « أكبر » إلى اللادينية والإلحاد اتجاهاً سافراً، وأراد « أكبر » [وكان من أكبر الملوك الذين عرفتهم الهند ، وأقواهم] أن يطمس على معـالم الاسلام وملامحه الواضحة وميزاته البـارزة بجميـع ما عنده من وسائل ومواهب وطاقات ، وقد اجتمع عنده جمع من الأذكياء وذوي الكفاءات النادرة يعينونه على هذا الباطـــل، ولم يكن هناك ضعف ، أو هرم في الدولة يُشير إلى زوالها ، او يدُلّ على ثورة يتأجج أوارها ، وكان العلم والمنطق، والقياس الظاهر ، لم يكن يصدّق انه سيقع هناك تغيير سارٌ أو تحوّل بارز في الحكومة والشعب .

هنالك قيّض الله أحد عباده للإصلاح والتجديـد ، فحمل راية الثورة بمفرده وبدأ في ثورة داخلية بقوة إيمـانه ويقينه ، وعزمه وتوكله ، وروحانيته وإخلاصه ، حتى أصبح كل وارث للحكم المغولي أحسن من سابقه، ثم تربع أخيراً على هذا العرش ، السلطان محي الدين « اورنك زيب عالمكير » الملك الفـاضل الصالح المسلم الغيور الذي يندُر نظيره في تاريـخ الحكومات

الاسلاميّة ، وكان رائد هذه الثورة المباركة ، إمـام الطريقة المجددية الشيخ احمد السرهندي [١] .

سهم الشيوخ ، والعلماء الربانيين ، في مقاومة الاحتلال الغربي ، :

ولما هجم « التتار [٢] » الأوربيّون ، أو الغزاة الصليبيّون على العالم الاسلامي في القرن التاسع عشر ، هبّ لمقـاومتهم المسلمون من كل ناحية من نواحي العـالم الإسلامي ، وكان فيهم عدد كبير من شيوخ الطريقة ورجال التصوّف ، نشأت فيهم — من أجل ترويض النفس والسلوك على طريـق النبوة — حميّة الإسلام ومقت الكفر والإستهانـة بالدنيا والإكبار للشهادة ، والإقبال عليها أكثر من غيرهم .

الأمير عبد القادر الجزائري ، عالم صوفي ، وقائد حربي :

وقد رفع راية الجهاد في الجزائر ضد الفرنسيين ، وأطلـق الشرارة الأولى فيها الأمير عبد القـادر الجزائري ، ولم يهدأ له

---

(١) اقرأ رسالة المؤلف « الدعوة الاسلامية وتطوراتها في الهند » .

(٢) هم المحتلون الغربيون الذين يسمون أنفسهم « مستعمرين » ، وقد زحفوا على العالم الاسلامي ، في القرن الثـالث عشر الهجري كما زحفت التتار عليه في القرن السابع الهجري .

بال من عام ١٨٣٢ إلى ١٨٣٧ م حتى أقضّ مضاجع الفرنسيين ، وقد أثنى مؤرخو الغرب على شجاعته وعدله ورفقه وعلمه وفضله ، وكان هذا المجاهد شيخ طريقة ، وصوفياً ، ذوقاً وعملاً ، يتحدث عنه الأمير شكيب أرسلان ، فيقول :

« وكان المرحوم الأمير عبد القادر متضلعاً من العلم والأدب ، سامي الفكر ، راسخ القدم في التصوف ، لا يكتفي به نظراً حتى يمارسه عملاً ، ولا يحن إليه شوقاً ، حتى يعرفه ذوقاً ، وله في التصوف كتاب ، سماه [المواقف] فهو في هذا المشرب من الأفراد الأفذاذ ، ربما لا يوجد نظيره في المتأخرين [١] » .

ويذكر كيف كان يقضي وقته ؟ ، وكيف كانت أيامه في دمشق ؟ فيقول :

« وكان كل يوم يقوم الفجر ويصلي الصبح في مسجد قريب من داره في محلة العمارة لا يتخلف عن ذلك إلاّ لمرض ، وكان يتهجد الليل ويمارس في رمضان الرياضة على طريقة الصوفية ، وما زال مثالاً للبر والتقوى والأخلاق الفاضلة ، إلى أن توفي رحمه الله سنة ١٨٨٣ م [٢] » .

---

(١) حاضر العالم الاسلامي - ج٢ - ص ١٧٣ .

(٢) حاضر العالم الاسلامي ج ٢ - ص ١٧٢ .

شيوخ الطريقة النقشبندية في ساحة الجهاد والاصلاح :

وفي عام ١٨١٣ م ، لما هجم الروس على طاغستان [٢] واستولوا عليها ، لم يقم في وجههم الا هؤلاء الشيوخ النقشبنديون ، وحملوا راية الجهاد ، وطالبوا بأن يقضى في قضايا المسلمين بالشرع الإسلامي ، ويكونوا أحراراً في تطبيق الشريعة في معاملاتهم .

يقول المرحوم الأمير شكيب أرسلان :

«وتولى كِبرَ الثورة علماؤهم وشيوخ الطريقة النقشبنديّة المنتشرة هناك ، وكأنهم سبقوا سائر المسلمين إلى معرفة كون ضررهم هو من أمرائهم الذين أكثرهم يبيعون حقوق الأمة بلقب ملك أو أمير ، وتبوءِ كرسي وسرير ، ورفع علم كاذب ، ولذة فارغة بإعطاء أوسمة ومراتب ، فثاروا منذ ذلك الوقت على الأمراء وعلى الروسيّة حاميتهم ، وطلبوا أن تكون المعاملات وفقاً لأصول الشريعة ، لا للعادات القديمة الباقية من جاهلية اولئك الأقوام ، وكان زعيم تلك الحركة غازي محمد الذي يلقبه الروس بقاضي ملاّ ، وكان من العلماء المتبحرين في العلوم العربيّة ، وله تأليف في وجوب نبذ تلك العادات القديمة المخالفة للشرع اسمه : «إقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان» .

---

(٢) طاغستان تقع على الساحل الغربي من بحر الخزر ، أكثر أهلها مسلمون إذا ضمت إليها القفقاز الشمالي ، يتراوح عدد المسلمين بين مليونين وثلاثة ملايين نسمة .

وفي عام ١٨٣٢ م استشهد الغازي محمد ، وحمل لواءه خليفته حمزة بك ، وجاء بعده الشيخ شامل ، وتسلم زمـــام القيادة ، وكان كما يقول المرحوم الأمير شكيب : « صورة للأمير عبد القادر الجزائري ، وكان قد انتقل من المشيخة إلى الإمارة »

واستمر الشيخ شامل في جهـاده ضد روسيا نحو ٣٥ سنة ، وانتصر عليهم في عدة معارك انتصاراً باهراً ، وكان الروسيّون ، قد أخذهم الرّعب بشجاعته وشهامته ، وانسحبوا له عن بلادهم باستثناء بعض الولايات ، وقـد فتح الشيخ جميع حصونهم وقـلاعهم في عام ١٨٤٣ و ١٨٤٤ م ، ونال غنيمة كبيرة من الأسلحة والذخيرة ، وهنالك ركزت الحكومة الروسيّة كل عنايتها على طاغستان ، وزحفت إليها بخيلها ورَجلها ، وأنشد الشعراء قصائد تـثير النخوة ، وسيقت إليها العساكر إثر العساكر ، ولكن الشيخ شامل استمرّ في المقاومة والجهـاد عشر سنوات أخرى ، ولم يضع سلاحه إلاّ في عام ١٨٥٩ م .

السنوسية ، وجهادها الأكبر في افريقيا :

وأروع مثال لهذا الجمع بين التصوف والجهاد سيّدي أحمد الشريف السنوسي ، ولقد قدّر الإيطاليون أنهم سيفتحون برقة وطرابلس في خمسة عشر يوماً ، ولكن القوّاد الانجليز الذين مارسوا الحرب في المستعمرات ، وفي الصحارى ، عارضوا هـذا الرأي وقالوا إنه يدلّ على عدم تجربتهم في هذا المجال ، فقد يمكن أن تستغرق

هذه الحرب ثلاثة أشهر ، فماذا حدث؟. لقد استمرّ القتال إلى ١٣ سنة كاملة ، ولم يستطع الإيطاليون في هذه المدة الطويلة أن يُخمدوا نار الثورة فيها ، والفضل في ذلك كله يرجع إلى الفقراء السنوسيين ، وإمامهم وشيخ طريقتهم سيدي أحمد الشريف .
لقد كتب الأمير شكيب أن بطولة السّنوسيين دلت على أن الطريقة السّنوسية ، هي عبارة عن حكومة بأسرها ، بل وهنا عـــدة حكومات لا تملك من الوسائل ما يملكها رجال هذه الطريقة .

سّيدي أحمد الشريف وشخصيته الجامعة :

ويصف الأمير سّيدي أحمد الشريف ، فيقول :

« وقد لحظت منه صبراً ، قلّ أن يوجد في غيره من الرجال ، وعزماً شديداً تلوح سيماؤه على وجهـــه ، فبينما هو في تقواه من الأبدال ، إذا هو في شجاعته من الأبطال » .

السيد المهدي السّنوسي وعنايته الفائقة بالفتوة والفروسية :

إن الصورة الرائعة التيَ عرَضها الأمير شكيب للزاوية السنوسية في صحراء إفريقيا الكبرى ، صورة جذابة مثيرة ، فيها دروس وعبر ، وفيها مسحة من جمال ساحر أخّاذ ، إن هذه الزّاوية كانت تقع في واحـــة الكفرة ، وكان يديرها عم سيدي أحمد الشريف ، وشيخه السّيد المهدي ، وكانت أكبر مركز روحي ، ومخيّم حربي – بلا نزاع – في افريقيا .

يقول الأمير شكيب :

« فقد كان السيد المهدي يهدي هَدي الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم أن أحكام القرآن محتاجة إلى السلطان ، فكان يحث إخوانه ومريديه دائماً على الفراسة ، والرماية ، ويبث فيهم روح الأنفة والنشاط ، ويحملهم على الطِّراد والجلاد ، ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أثمر غراسُ وعظه في مواقع كثيرة ، لا سيما في الحرب الطرابلسية التي أثبتت بها السنوسية ، أن لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى ، وتصارع أعظمها جبروتاً وكبراً ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هي التي كانت مظهر شجاعة السنوسيين ، بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيس في مملكة « كانم » ومملكة « واداي » من السودان ، استمرّت من سنة ١٣١٩ إلى سنة ١٣٣٢ هجرية .

وحدّثني السيد أحمد الشريف أن عمه المهدي ، كان عنده خمسون بندقية خاصة به ، وكان يتعهدها بالمسح والتنظيف بيده ، لا يرضى ان يمسحها له أحد من أتباعه ، المعدودين بالمئات ، قصداً وعمداً ، ليقتدي به الناس ، ويحتفلوا بأمر الجهاد وعدّته وعتاده ، وكان نهار الجمعة يوماً خاصاً بالتمرينات الحربية من طراد ورماية ، وما أشبه ذلك ، فكان يجلس السيد في مرقب عالٍ ، والفرسان تنقسم صفّين ، ويبدأ الطراد ، فلا ينتهي إلا في آخر النهار ، وأحياناً يضعون هدفاً ، ويأخذون بالرماية ، حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماةً ،

لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران ، وكان يُجيز الذين يسبقون في الطـّراد أو يقرطسون في الرمي بجوائز ذات قيمة ، ترغيباً لهم في فضائل الحرب ، كما انه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصاً عندهم للشغل بالأيدي ، فيتركون في ذلك اليوم الدروس كلها ، ويشتغلون بأنواع المهن من بناء ، ونجارة ، وحدادة ، ونساجة ، وصحافة ، وغير ذلك ، لا تجد منهم ذلك اليوم الا عاملاً بيده ، والسيـّد المهدي نفسه يعمل بيده لا يفتر ، حتـّى يُنبـّه فيهم روح النشاط للعمل » .

نشاط السنوسيّة في الأعمال البنائيـة والأمور النافعة :

« وكان السيد المهدي ، وأبوه من قبله ، يهتمّان جدّ الإهتمام بالزراعة ، والغرس ، تستدلّ على ذلك من الزوايا التي شادوها ، والجنان التي نسقُوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بستانان ، وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة إلى بلادهم من أقاصي البلدان ، وقد أدخلوا في الكفرة ، وجغبوب ، زراعات وأغراساً لم يكن لأحـــد هناك عهد بها ، وكان بعض الطلبة يلتمسون من السيـّد محمد السنوسي أن يعلـّمهم الكيمياء ، فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكـّـــة المحراث » وأحياناً يقول لهم : الكيمياء هي كـدّ اليمين وعرق الجبين » ، وكان يشوّق الطلبة والمريدين إلى القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جمـــلاً تطيـّب خواطرهم ، وتزيد رغبتهم في حرفهم ، حتى لا يزدروا بها أو يظنوا أن طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول

لهم : «يكفيكم من الدين حسن النيّة ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأفضل منكم » ، وأحياناً يُدمج نفسه بين أهل الحِرف ، ويقول لهم ، وهو يشتغل معهم :

« يظنُّ أهل الأوريقات والسبيحات انهم يسبقوننا عند الله ، لا . والله ، ما يسبقوننا (١) » .

الشيخ حسن البنّا ، ونصيب التربية الروحية في تكوينه ، وفي تكوين حركته الكبرى :

أمـا الحركات الإسلامية المعاصرة ، فقد برزت فيها حركة الإخوان ، وهي أعظمها تنظيماً وقوةً ، وهي الحركة الوحيدة التي حملت راية الإصلاح والدعوة ، ودعت إلى العودة للإسلام من جديد في العالم العربي ، وأكبر ميزاتها ، أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة ، ولها تأثير عميق بارز ملموس على الحياة العامة في الأقطار العربية كلها ، وكانت شخصيّة موسِّسها وقائدها الأول شخصية قوية ساحرة تجمع بين عدة جوانب ، إنـه كان عملاً متواصلاً وسعياً دائباً ، وهمة لا يتخلّلها فتور ، وأملاً لا يرتقي إليه يأس ، وجندياً ساهراً على الثغر لا يناله التعب والعناء ، وكان وراء كل هذه الخصائص والسمات عامل قوي لا يستهان به ، وهي تربيته الروحية ، وسلوكه ورياضته ، إنه كان في أول أمره — كما صرح بنفسه — في الطريقة الحصافية الشاذلية ، وكان

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ج ٢ – ص ١٦٣ – ١٦٤ .

قد مارس أشغالها وأذكارها، وداوم عليها مدة[1]، وقد حدثني كبارُ رجاله وخواص أصحابه، أنه بقي متمسكاً بهذه الأشغال والأوراد إلى آخر عهده، وفي زحمة أعماله، وقد تحدّث عن حركته في المؤتمر الخامس المنعقد في ١٣٥٧ هـ، وبيّن خصائصها، فقال: دعوة سلفيّة وطريقة سُنيّة، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية[2]».

السيد الامام أحمد الشهيد، وأتباعه وخلفاؤه، الأبطال المغاوير:

أما في الهند، فترى هناك مزجاً غريباً، واجتماعاً نادراً بين التصوف والجهاد، يقلُّ نظيره في العالم الإسلامي، أما السيد أحمد الشهيد وحركته ورجاله، فحدِّث عن البحر ولا حرج، فقد بلغ جمعه العجيب بين هذا وذاك، وتفوّقه في كلا الجانبين إلى حدِّ التواتر، وأصبح من المسلّمات في هذه البلاد، انّ ذلك الشوق إلى الجهاد والحنين إلى الشهادة، والحبّ في الله، والبغض في الله، الذي تحلّى به أصحاب السيد أحمد رحمه الله تذكّرنا بالقرون الأولى، وإذا اطّلعنا على تاريخهم، علمنا أنّه كان

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية بقلم الامام الشهيد الشيخ حسن البنا، انظر «الطريقة الحصافية».

(٢) رسالة المؤتمر الخامس — ١٨ — ١٩.

نفحة من بقايا النفحات في القرن الأول ، هبَّت في القرن الثالث عشر ، فأحيتِ الأرضَ بعد موتها ، وبرهنت على أن الإيمان ، والتوحيد والصِّلة الصحيحة بالله ، والتربية والسلوك على منهاج النبوّة ، لا يزال يصنع العجائب ، وأن التضحية والإيثار والفداء من غير روحانية صافية مشرقة ، وعاطفة إصلاح قويَّة راسخة ، حُلم لا يتحقّق وغاية لا تُنال .

وكان من أتباعه وخلفائه أمثال السيِّد نصير الدين ، ومولانا ولائت علي عظيم آبادي على قدمه من هذا الجمع النادر العجيب ، وتبعهم مولانا يحيى علي ، ومولانا أحمد الله صادقبوري . إن أحاديث جهادهم ومحنتهم ، وصبرهم على المكروه ، واحتمالهم الشدائد ، تذكّرنا بمحنة الإمام أحمد بن حنبل ، فتارة نراه على متن الخيل ، وتارة في مشنق « أنباله » وتارة في منفى جزيرة أندمان في المحيط الهندي ، وتارة في زاويته وبين مريديه يعلمهم أشغال الطريقة المجدِّدية ، والطريقة المحمّدية ، طريقة السيد أحمد الشهيد ، وإذا وضعنا تضحيات أهل الهند كلها في كفة ميزان ، ووضعنا تضحيات أهل صادقبور وجهادهم في كفة أخرى ، رجحت هذه الكفة الأخيرة .

علماء الهند وشيوخها ، في ساحة الحرب ، وميدان الاصلاح :

وقد استمرّ هؤلاء الشيوخ من بعدهم في الجهاد في سبيل

الله ، فرأينا الشيخ الكبير الحاج امداد الله المهاجر المكي، والشيخ الحافظ ضامن ، والشيخ محمد قاسم ، ومولانـــا رشيد أحمد الكنكوهي في ساحة « شاملي » [1] يقاتلون الإنجليز، ويستشهد الشيخ ضامن في ساحة الجهاد، ويضطر الشيخ امداد الله إلى الهجرة، ويضطر الشيخ النانوتوي ، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي إلى التستر والخفاء مــدة من الزمان ، وكان الشيخ أحمد الله شاه ، والشيخ لياقت علي من المشايخ الكبار الذين قادوا الجيوش لقتال الإنجليز في ثورة ١٨٥٧ م الكبرى وتولوا كِبَرهــا ، واستشهد بعضهم ، وقتل بعضهم شنقاً .

ثم جــاء بعدهم الشيخ محمود حسن الديوبندي [الذي لقِّب بحق ، شيخ الهند] وأعدَّ عدَّته للجهاد ضد الإنجليز ، وأراد إنشاء حكومة مستقلة في الهند ، فيهــا الأمر والنهي للمسلمين ، ودفعه طموحه وهمَّته إلى الإتصال بتركيا ، والإنسجام معها على خط الثورة والجهاد . إن الرسائـــل الحريرية ، والإجتماع بأنور باشا، واعتقاله في جزيرة « مالطا » كل ذلك يدل على علوِّ همَّته ونشاطه الدائب المستمر ، وصدق الله العظيم : « من المؤمنـــين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدَّلوا تبديلاً » .

الشواذ من المستسلمين والخائنين ، لا يحكم بهم على القوم :

فكيف يصح القول – إذاً – مع هــذه الشهادات المتواترة

---

(١) قرية جامعة في مديرية « مظفرنك » ما بين «دهلي» و «سهاون فور».

المتلاحقة ، أن التصوف هو رمز البطالة والكسل ، والفراز عن معترك الحياة ، والإنسحاب عن ميدان الكفاح والنضال ؟ فإذا وجدنا هناك أمثلة شاذة لبعض أصحاب الطريقة والمتصوفين الذين آثروا الإنعزال ، ومالأوا بعض الحكومات الأجنبية ، أو خدموها ، فهناك في جانب آخر عدد أكبر من أئمة التصوف ، وشيوخ الطريقة الذين فاقوا أولئك المتصوفين المنتسبين في الطريقة ، ومكانتهم الروحية السامية ، وامتازوا عنهم في الكفاح والجهاد ، والقتال والنضال ، والبقاء في معترك الحياة .

المحب الصادق لا يعرف للحياة قيمة ،
ولا يحسب المخاوف حساباً :

إن التصوف ، إذا وجد في صورته الأصلية الصادقة ، وانسجم مع منهاج النبوة وحمل راية اليقين والحب ، [التي هي من أهم أغراضه ونتائجه] فإنه ينفخ في أبنائه روح العمل ، والشوق إلى الجهاد ، وعلو الهمة والطموح ، والحنين إلى الشهادة والتقشف والجلادة ، فإنه إذا تدفق ينبوع الحب الإلهي في قلب الإنسان تغنى وجوده وكيانه بما أنشده الشاعر الفارسي :

« أيها الرجل الذي يتغنىّ بالحبّ ويتشدق بالكلام عنه ، تجرّد عن ذاتك ، واعرض نفسك للمهالك ، وقابل الموت وجهاً لوجه ، وإلا فدعِ الإنتساب إلى هذا الطريق وأهله » .

انموذج كريم من الطراز القديم

الفرق بين عارف بالله ، ومتبحّر في علوم الدنيا :

وقع إلي كتاب صغير في أردو إسمه « إرشاد رحماني » من تأليف العالم الرباني الشيخ محمد علي المونكيري مؤسس « ندوة العلماء » ، ذكر فيه بأسلوب طبعي مؤثر مقابلته مع بعض كبار المخلصين والعلماء الربانيين في عصره ، وخص بالذكر شيخه مولانا فضل الرحمن [1] الكنج مراد آبادي ، عليه رحمة الله ، وكيف تعرّف به ، وكيف كانت زيارته الأولى في كانفور ، وكان يومئذ طالباً يدرس الفلسفة والمنطق شأن طلبة العلم في عصره ،

---

(١) ولد في سنة ١٢٠٨ هـ وتوفي إلى رحمة الله سنة ١٣١٣ هـ، و « كنج مراد آباد » قرية جامعة في مديرية « أناؤ » في الولاية الشمالية في الهند ، وله ترجمة حافلة جميلة ، في الجزء الثامن من كتاب « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » للعلامة السيد عبد الحي الحسني الذي كان من أصحابه وتلاميذه الروحيين .

وكيف قابله الشيخ ، كأنه كان منه على ميعاد ، وقال « هذا ولدي » ! وسأله عن الكتب التي يقرؤها ، ولما ذكر كتب الفلسفة والمنطق ، امتعض الشيخ وقال « نفرض أنك قرأت هـذا الكتاب وبرعت في هـذه العلوم « اليونانية » ، فماذا بعد ؟ وأي فائدة تجنيها ؟ إمش معي إلى قبر رجل ، لم يعرف من هذه العلوم قليلاً ولا كثيراً ، ولكن عرف الله ، وكان له معه شأن ، ثم امش معي إلى قبر فلان من أئمة المنطق ومن كبار المؤلفين في هذا الموضوع ، ترى عجباً ! .

من فيض الحب والعاطفة :

وذكر كيف تملّكه حب الشيخ ، وكيف كانت له معه محادثات ومقابلات ، حتى استأثر به الشيخ ؛ وكان من أخصّ أصحابه ، وذكر سيرته وتجرده من أسباب الدنيا ، وإقباله إلى الله بقلبه وقالبه ، واطّراحه على عتبة عبوديته وشدته في اتباع السنة والتمسك بما ثبت منها وصحّ في الأذكار والأدعية والأفعال والأحوال ، كنت أقرأ ذلك ويسيغه عقلي الصغير ، ويلتذ به شعوري ، وأعجبني بصفة خاصة أبيات كان ينشدها الشيخ ، تدل على أنه كان صاحب عاطفة قوية ، ويغلي في قلبه مرجل الحب والحنان ، فيتسلّى بهذه الأبيات التي ينشدها في بساطة ، وكأنه يعتذر إلى من يعدُّ ذلك نكراً ويقول :

سقَوني وقالوا : لا تُغنِّ ولو سقوا

جبالَ سُليمى ما سُقيتُ ، لغنَّت

غاية العلم ، العمل :

وقريبـــاً من تلك الأيام صادفتُ ورقاتٍ مطبوعة لوالدي العلامة السيد عبد الحي الحسني رحمه الله ، سمّاها « استفادة » قصّ فيها قصة رحلاته إلى الشيخ فضل الرحمن، عليه رحمة الله ، كان يومئذ طالباً في لكهنؤ بلغته وفاة الشيخ فتأسف على ذلك أسفاً شديداً ثم بلغه نفي هذه الشائعة ، وأن الشيخ لا يزال حياً فشد الرحل إلى كنج مراد آباد وقطع مسافة طويلة لم يقطعها في عمره من قبل راجـــلاً وهو لا يشعر بالكلل والتعب من شدة الشوق ، ووصل إليه وهو مضطجع وعنده أصحابه ، فسأله عن وطنه ، فلما ذكر والدي رحمه الله أنه من رائي بريلي من زاوية العارف بالله الشيخ علم الله الحسني ، حوّل الشيخ جنبه وقال: « لقد كان علمـاً » ، ثم سأله عن الكتب التي يقرؤها ، فلما ذكر هداية الفقه وأمثالها ، قال : إن الغاية من التعلم هو العمل ، وقد كان المخلصون يتعلمون ليعملوا . كان الشيخ العـارف محمد مينا اللكهنؤي يقرأ شرح الوقاية ، فلمـــا انتهى من كتاب الصلاة أطبق الكتاب ، فسأله أستاذه عن السبب ، قال إن الفرض منه التعلم هو العمل ، وقد فرض الله علي الصلاة فتعلمت أحكامها، فإذا فرض علي الزكاة وملكت النصاب قرأت أحكامها كذلك ، أما الآن فلا أتشاغل بتعلم ما لا أستطيع العمل به [1].

---

(١) إن مثل هذه الحكايات لا يحتج بها في الدين ولا يقتدى بهـــا ، ولكن ذكرها لا يخلو من فائدة لأنها تحث على الاخلاص وعلى وجهة نظر خاص (الحسني) .

نفحات الايمان والحنان :

يقول والدي رحمه الله ، لا أذكر اني وجدت في قيام الليل لذة ، وجدتها في تلك الليلة ، وأخذ الشيخ بيدي من غير طلب مني ولقنني كلمات التوبة ، وحثّني على قراءة « الحصن الحصين » مجموع الأدعية والأذكار المأثورة للجزري ، وقال أعرف مئات من الناس أكرمهم الله بالولاية بقراءة هـذا الكتاب والتزام الأدعية المأثورة، وهنالك تملكته العاطفة ، وأنشأ ينشد الأبيات الرقيقة الرائقة بالفـارسية والأردوية والهندية ، منها بيت في الأردوية ، معناه « لا تتعب نفسك يا من يبحث عن القلب في صدري ، إنمـا هي حثوة من رمادٍ فيها النار كامنة » وبيت للحكيم السنائي الشاعر الفارسي المعروف ، معناه « أسخن الله عين السنائي ، إذا أراد أن يعيش ويقضي أياماً غير إمتّبع سنة الرسول » وبيت بالهندية لغة الهند القروية « إن عيناً حلّ فيها المحبوب ، ووقع منها كل موقع ، لم تبصر الجمال في غيره » .

غرام بحديث الرسول :

وكان من عادة الشيخ رحمه الله ، أنه كان يقرأ الجامع الصحيح للبخاري كل يوم ، وكان له شغف زائـد بالحديث ، وغرام لا يكاد يعدل به — بعد القرآن — شيئاً ، وكان إذا قرأ الدرس ترنحت أعطافه وفاض خـاطره ، وكان كبير الإعجاب بالجـامع الصحيح بصفة خاصة ، وكان يقرأ الدرس كل يوم مرة

أو مرتين ، وكان والدي سعيداً جداً إذا قرأ الشيخ له الدرس ثلاث مرات ، وبقي الوالد يلتذ بهذا الدرس طول حيـــاته ، ويذكره بلذة غريبة وسرور عظيم ، ويقول : لا أستطيع أن أصف هذا الدرس وحلاوته ، وتأثيره في القلب ، فليس الخبر كالعيان ، وسمع منه الوالد الحديث المسلسل بالأولية وهو قوله صلى الله عليه وسلم « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » والمسلسل بالمحبة وهو الحديث المشهور « يا معاذ إني أحبك فقل أللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبـــادتك » وقال الشيخ : سمعته أذناي من شيخنا الشيخ عبـــد العزيز ولي الله الدهلوي ، وأنا أجيزك بروايته .

هوان الدنيا وعظمائها ، في عيون العـــارفين :

وقرأت بعد ذلك مقالة للسّريّ الفاضل ، المؤلف البارع ، الشيخ حبيب الرحمن الشرواني رحمه الله وزير الأمور الدينية في إمـــارة حيدر آباد ، وصف فيها رحلته واجتماعه بالشيخ الكبير ، وارتسامات هذه الزيارة ، فذكر أنه سبقه إلى زيارة الشيخ بيوم واحد ، كبير أمراء حيدر آباد ومن أعظم الأغنياء والوجهاء في عصره « نواب خورشيد جاه بهادر »، وكانت زيارته الملوكية ، وما أنفق في طريقه إلى « كنج مراد آباد » « مقر الشيخ » من نفقات عظيمة ، حديث المجالس والنوادي ، وكل

من صادفه في الطريق حدّثه عن هذه الرحلة العظيمة ، وعن هذه الأريحية الكبيرة، وعن غنى الزائر العظيم ، وعن ركبه وخيامه وحشمه ، ولكنه لما وصل إلى « كنج مراد آباد » ، لم يسمع له ذكراً ، وكأنّ هذا الأمير الذي دوّت له الأرجاء ، وصفّق له الجمهور ، وتحدثت به المجالس ، لم يزر هذه القرية الصغيرة ، ولم يسترعِ اهتمام أحد،إنه لم يسمع في هذه القرية خبراً عن ذي جاه كبير ومال وفير ، إنما هو حديث عن الله والرسول ، كأن هذه القرية لا شأن لها بالعالم ، ولا صلة لها بالخارج ، إنما هي جزيرة امنقطعة يسود فيها السلطان الديني ويحكم فيها عبد من عباد الله لمخلصين ، تحرر من سلطان المادة فدانت له الدنيا ، وأعرض عن الدنيا فأتته راغمة ، قال ولم أر نفسي أصغر في عيني منها ذلك اليوم .

وسمعت الشيخ حبيب الرحمن يتحدث كثيراً عن شيخه ، ويحكي حكايات في زهده وكبر نفسه وإخلاصه ، واستخفافه بأهل الدنيا ، وأصحاب الوجاهة والأموال ، وقرأت لغيره كالشيخ تجمل حسين البهاري ، والسيد نور الحسن ابن المؤلف الشهير الأمير السيد صديق حسن اخان الفتوحي البخاري كتباً ورسائل – وأكثر أعضاء الندوة من تلامذة الشيخ ومريديه – فأمكنني أن أعرف الشيء الكثير من سيرته وأخباره ، وكان كله معجباً مطرباً يملأ القلب بالإيمان ، ويحقّر المادة وعبّادها ويعظم الدين وأهله .

كيف قابل الشيخ حاكم الولاية الانجليزي ؟ :

فمن ذلك أن حـاكم الولاية الإنجليزي قصد زيارته مرة ، وشاع ذلك في الناس ، ووصل الخبر إلى كنج مراد آباد ، فأهمّ الناس ، وشغل خاطرهم ، وذلك لأن الإنجليز كانت لهم صولة في البلاد بعد عـام ١٨٥٧ م لا تقدر الآن ، ولا يستطيع هذا الجيل الذي نشأ بعد حركة التحرير أن يفهمها ويعرف خطرها ، وكانت زيارة حاكم كبير يحكم على ولاية من كبرى الولايات الهندية – هي الولايات المتحدة آكره وأوده – حـادثة ذات شأن ، واهتم الناس باستقباله، وقد عرفوا أن الإنجليز لا يجلسون إلاّ على الكراسي ، وزاوية الشيخ فقيرة ليس فيهـا كرسي ومقاعد حديثة ، وعرف الشيخ اهتمام الناس واستخف باهتمامهم بهذا الأمر التافه، الذي لا ينبغي أن يشتغل قلب المؤمن فتساءل ما يهمكم يا جماعة ؟ قالوا: حاكم الولاية يزور الشيخ وليس ههنا مقعد لائق به ! .

وكأن الشيخ أراد أن يلقي عليهم درساً في الإيمان ويُريهم منزلة أرباب الدنيا في عين أهل الدين ، فقال : ويحكم ! أليست هنا جرة نشرب منها ؟ قالوا بلى ، قال فنقلبها ويجلس عليهـا ، وسكت الناس ، وجاء الحاكم فلم يكن من الشيخ إلا أن أشار إليه بالجلوس ، ولكنه بقي واقفاً ، وحادثه الشيخ كما يحادث من لا شأن له من النـاس ولا خطر ، وانتقد حكومته ، وقال قد فشت الرشوة في حكمكم فشوّاً كبيراً ؟ والحـاكم منصت

خاشع ، وقرينته جالسة تسمع ، وقال : إن فيكم وقاحة وقلة حياء ، بشير إلى سفور المرأة ، ثم انصرفا وانصرف الناس إلى أشغالهم وعادت القرية إلا هدوئها .

نظرته الى المال وتلطفه في اعانة ذوي الحاجة والخصاصة :

وحكى لي الشيخ حبيب الرحمن أنه أُهديَ إليه يوماً في المساء خمس مائة روبية ، وهو مقدار كبير من المال في عصر الشيخ ، — فقد توفي في فجر هذا القرن — فقال عليّ بالحمالين والعملة ، فقد أشرف جداري على التهدم ، وجاء الفقراء ، وأهل الحاجة ، وهم يعرفون عادة الشيخ ، فاشتغلوا بالجدار ، وما عليه بأس ، إنما هي عادة الشيخ في توزيع المال على ذوي الحاجة والخصاصة ، المتعففين الذين لا يسألون الناس ، ولا يفطن بهم الناس ، ثم وزّع عليهم المال كله ورجعوا إلى بيوتهم ، وعرض له بعض أصحابه وقال: إنا لم نر بجدار الشيخ بأساً فما الداعي إلى هذه العجلة ؟ فقال : كيف لو سقط الجدار وتهدم البيت ؟ وعرف الرجل أنه حرص الشيخ على أن لا يبيت وعنده درهم أو دينار ، وإنما هو اتّباع النبي صلى الله عليه وسلم .

طراز انساني لا يقاس بمقاييس العصر :

إن مثل هذه الحكايات والأخبار ، — وقد رويت عن غيره من الأولياء المتقدمين ، وعباد الله الصالحين — أفادتني كثيراً ،

وكانت دراستي لهـذه الكتب والرحلات في ريعان الشباب ومُقتَبَلِ العمر ، سعادة عظيمة ، فقد تعرفت بطراز آخر من الرجال غير الطراز الذي عرفته ، ونشأت معه ، والذي كنت أراه حولي في عصر قد طغت فيه المادية ، وقويت فيه الدعوة إلى المال والوظيفة ، وأصبح الناس يقاسون بمقياس واحد وهو مقياس « الرواتب والإيراد » ، كان الشيخ فضل الرحمن يمثِّـل هذا الطراز الذي يعيش بالإيمان ويعيش للإيمان ، والذي صغرت في عينه المادة ، وهان أهلها ، وجلَّ الدين ورجاله ، والذي كان يمثّل بأخـلاقه وحيـاته ذلك « اليقين » الذي امتاز به عصر الصحابة ، والمؤمنون في القرون الأولى ، وذلك « الحب » والعاطفة القوية ، التي نجد فيها لذة الحياة ولذة والإيمان ، ويسهل معهـــا علينا الاتباع الكامل للأحكام، والتغلب على الشهوات ، ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم واقتفاء آثاره .

فضل دراسة سير المخلصين والربانيين ، وحبهم في تكوين السيرة ، والتربية الخلقية :

قد أحسنت إلي هذه الدراسة من ناحية أخرى ، فقد عرفت بها أن الطبيعة الإيمانية لا تزال منتقلة من جيل إلى جيل ، وأن المصابيح بعضها يشتعل من بعض ، وأن الله قد تكفل بحفظ هذه الخصائص الإيمانية ، كما تكفل بحفظ مصادر الدين .

لقد نشأت بفضل هذه الدراسة على حب هذا الطراز الرفيع من الإيمان والإخلاص ، وإجلاله ، كان العاصم لي من الإندفاع

إلى شخصيات عظيمة في العلم صغيرة في المعاني الإنسانية ، غنية في المظهر ، فقيرة في « الحقيقة » ، تضاف الفضائل إلى أصحابها – من شهادات يحملونها، ورواتب يتقاضونها، وقصور يسكنون فيها ، وحكومات يتجملون بها ، – ولا تنبع من نفوسهم وقلوبهم ، ولا تتصل بشخصيتهم ، فهم إذا تجردوا منها أو سُلبوها ، أفلسوا إفلاساً كاملاً ، وماتوا قبل أن يموتوا ، بالعكس ، من أصحاب الإيمان والإخلاص ، والصدق والتقوى ، والزهد والقناعة، وكبر النفس وغنى القلب ، فلا يمكن تجريدهم من هذه الفضائل ، وحرمانهم ثروتهم .

لقد نشأت بفضل هذه الدراسة على رغبة صادقة ، في الاجتماع بأمثال هؤلاء ، والبحث عنهم ، انتهت بي إلى الوصول إلى بعضهم الذين كان لهم فضل كبير في منهج الحياة الذي آثرته أخيراً ، وأحب البقاء عليه :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلباً فارغاً : فتمكنا [1]

---

(١) فصل من سلسلة مقالات المؤلف « الكتب التي عشت فيها » ظهرت في مجلة « البعث الاسلامي » الصادرة عن ندوة العلماء لكهنؤ – الهند .

كيف يستقبل العارفون المحبّون الموت ويودّعون الدنيا؟! (١)

ساعة الموت مرآة ، تتجلى فيها المعاني الروحية ، والمراتب الايمانيـــة :

إن وفـــاة المحبين والعارفين ، وعباد الله المقربين ، من أروع الصـّور ، التي تبرز فيها المعاني الروحية السامية ، « امثال الحب والوفاء ، والشوق إلى اللقاء ، والثقة بوعـــد الله ، والحنين إلى رضاه » حية شاخصة ، جميلة رائعة ، فهي ساعة تتجلى فيها كل هذه المعاني والحقائق التي جاهدوا لأجلها ، وتفانوا في سبيلها ، وعاشوا في جوّها ، وحنـّوا إليهـا ، كما يحن الطائر المحبوس إلى وكره ، حتى إذا وافتهم هذه الساعة ، كانوا أشد شوقاً وإيماناً ،

---

(١) فصل من كتاب « تذكرة مولانا فضل الرحمن الكنجمرادآبادي » للمؤلف ، نقله الى العربية الاستاذ محمـــد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الاسلامي » .

ورقّة وحناناً، وطرباً واهتزازاً [1] وطرأت عليهم أحوال وآثار ، وأقبلت بوادر خير وطلائع سعادة ، يغبطهم عليها كثير من الأحياء وأصحاب النعيم والسعادة، ويتمنّون الوصول إلى هذه المكانة السامية ، والحصول على علامات القبول في هذه الساعة الدقيقة الفاصلة ، التي هي محصول الحياة ولب اللباب .

موت الصدّيقين برهان ساطع على صدق الاسلام ، وقوة الايمان :

ويورث ذلك في كثير ممن شرح الله صدرهم ، ورزقهم الإنصاف من غير المسلمين وكثير من الشاكّين المنكرين إيماناً ، بأن هنالك حقائق غيبية ، وعالماً وراء الحس والمادة أجمل وأوسع يهيم به الهائمون ، ويحن إليه المؤمنون المصدقون ، وأن الأمر رأي عين ، لكثير من أصحاب العقيدة والاتّباع ، وإن لتعاليم الإسلام وحياة الرسول تأثيراً في نفوس المسلمين ، لا يوجد له نظير — في العمق والقوة ، والتغلغل في الأحشاء — في الفلسفات الاقتصادية ، والتعاليم المادية .

يوميات ومذكرات ، يسجّلها بعض كبار الأصحاب :

وفيما يلي قصة وفاة العارف الكبير ، وهو الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي (١٢٠٨ — ١٣١٣ هـ) الذي جاء ذكره في

(١) وفي مثل ذلك لما قال القائلون ، وقد شاهدوا ما يعانيه بلال مؤذن رسول الله من شدائد المرض وغمرات الموت « واكرباه » ، لم يملك بلال نفسه ، فقال ، وقد أفاق من غشيته « بل واطرباه » ، غداً الاقي الأحبة ، محمداً ، وحزبه .

الفصل السابق اقتبسناها من يوميات الشيخ محمـــد عبد الغفار الآسيوني، سماها «هدية العشّاق»، وكتاب «تواريخ نامة»، وضعه الشيخ أحمد نجل صاحب الترجمة .

صور رائعة من الشوق الى اللقاء والاستغراق والفناء :

وهي تقدّم نموذجاً رائعاً من الإستقامة، واتّباع السنة النبوية، والزهد في حطام الدنيا، ومن الحب والتفاني، والإيمان واليقين، والشوق والحنين يقل نظيره، وهي تدفعنا إلى الإقتداء بهديهم، وتتبع آثارهم، والسير في ركبهم الميمون، مهما أنكر المنكرون، وتطاول الجاهلون، «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون» .

٧ – من ربيع الأول ١٣١٣ هـ :

أمر أصحابه بعد أن انصرف عن صلاة العصر، بأن يأتوا بصحيح مسلم، فقرىء منه – إذ ذاك – ثلاث عشرة صفحة، ثم أمر القارىء، بأن يعيد الكتاب إلى مكانه في المسجد، وكان ذلك آخر درس في الحديث الشريف .

٨ – من ربيع الأول :

أفاض في ذكر رسول الله صلى الله عليـــه وسلم في مجلسه، وأنشد شعراً رقيقاً مرتين، معناه :

«نما وتنضّر الكلأ الذي وطأته قدماك، وازدهرت وأثمرت

تلك الشجرة التي وقفتَ ساعة في ظلها ، فكان لإنشاده وقع كبير في النفوس، وغمرت الجميع موجة من الرقة ، والعاطفة الفياضة ، والحب النبيل ، ثم أنشد شعراً آخر بالفارسية ، معناه وشرحه ، « أن من عادة السادة والأغنياء أن يزهدوا في شراء عبد دميم ذميم ، أما سيدي الكريم (يعني الرب تبارك وتعالى) فبالعكس قد خصّني وآثرني على علاتي، وكثرة عيوبي وسيئاتي » ثم بكى وعاش برهة من الزمن في حالة يخونها التعبير ، ويعجز عنها التصوير ، وبينما هو في هذه الحال إذ تكلم ، وقال ، إن في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، رجالاً تحن الحور العين إلى رؤيتهم ويتلهفن لقدومهم ، فحين يدخلون الجنة من غير حساب، يسرعن إليهم ليجدن منهم التفاتة ، ولكنهم لا يبالون ، فقد شُغلوا بالتجلي الالهي عن كل شيء ، يمرّون بالنار فتتعوذ منهم ، تتلألأ وجوههم كما يتلألأ القمر ليلة البدر ، واشتدّت به حالة الفناء والإستغراق ، حتى أصبح لا يعرف — أحياناً — بعض خدمه ومحبيه ، الذين كانوا لا يفارقونه لوقت من الاوقات ، وكان من عادته أنه تتلى عليه الرسائل والخطابات بعد صلاة الظهر ، فلما جاء دورها قال إنها اليوم لكثيرة ، ثم قرأ شيئاً ونفث عليها ، وقال يسّر الله أمورهم ، وبارك في نيّاتهم .

٩ — من ربيع الأول :

قال : إن الله سبحانه يحب عباده، فإذا أصيب عبده الصالح المخلص في شيء وصبر عليه ، قال لملائكته انظروا إلى عبدي ،

كيف صبر وشكر على مصابه ، اشهدوا أني غفرت له ، ثم أورد أحاديث في مناقب سيّدنا أبي بكر ، وتملكته الرقة والعاطفة ، وعاش في شوق وحنان مـدة من الزمان ، وظل على هذه الحالة من تزايد الضعف واعتلال الصحة إلى الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، وكلما يسأله سائل عن صحته ، يحمد الله ، ويقول انني على خير ، وليس بي إلا شيء من الضعف ، وكان يذكر أحياناً شيخه العارف محمد آفاق وآخرين من اولياء الله ، ثم ينشد شعراً معناه :

« يا حمامة الأيك قصّي عليّ قصـة ذلك الانسان المشرد ، الذي لا دليل عليه ، ولا سبيل إليه ، جزى الله عني من أحرق حشو الدماغ من فضول الصرف والنحو ، والمنطق والفلسفة ، وأذكى نار الحب الالهي في قلبي ، فما أعظمها من منـة ، وما أجلها من نعمة ».

١٣ – من ربيع الأول :

أمر أحد أصحابه أن يجلس على سريره ، ثم قال له : إن في السلف رجالاً ، لم يقع عليهم بصر سعيد – ولو من بعيد – إلا وقد رحمه الله وغفر له ، ومنهم من سرّح طرفه في رجل فأصبح من الأولياء والعارفين، وهنالك قال له بعض من شهد المجلس، إن الله أنعم على شيخنا – ايضاً – بهذه الهبة والنعمة ، فسكت ولم ينبس بكلمة .

وأصبح من صباح اليوم السادس عشر يردد هذا الشعر :

فسهِّل يا إلهي كل صعب بحرمة سيِّد الأبرار سهِّل

وكان ذلك دأبه إلى أن فارق الدنيا .

١٨ — من ربيع الأول :

حضره بعض رجاله يعودونه ، فمكث غير بعيد ، حتى مدّ يمينه كأنه يصافح أحداً وقعد وقال ، سأحضر قريباً ما أريد إلا أن أغيِّر ثيابي ، ثم قال لمن بايعوه في هذا الوقت ، أن يقولوا بايعنا على يد الشيخ محمد آفاق (شيخ صاحب الترجمة) في الطريقة القادرية ، الصلاة والصيام والزكاة والحج فرض ، وهن أركان الإسلام ، ولا تحضروا أعياد المشركين ، مثل «ديوالي» و «دسهره» و « بسنت » أبداً .

١٩ — من ربيع الأول :

بردت رجلاه واعترته الحمى ، وظل في شبه غيبوبة ، يقعد بين حين وحين ، ويقول : ماذا افعل الآن ؟ فيطلبون منه أن يستريح ، فيضطجع حالاً ، وينشد الشعر الذي ذكرناه آنفاً :

فسهل يا إلهي كل صعب بحرمة سيد الأبرار سهل

ولم يقل أفاً — قط — ، في هذا المرض ، بل قضى جل وقته صامتاً ، يتناول الدواء ، ولا ينزعج به او يرفضه ، كما كان شأنه من قبل .

واشتدت به الحمى في المساء، وجيء بالطبيب، فسلّى زوجه ومحبيه ، في اثناء ذلك انشد الشيخ شعراً يقول فيه : « نفسي فداءاً لغبار طريق الأسياد الأربعة : ابي بكر وعمر وعثمان وعلي» ، فوجدوا في هذا الشعر بعض الراحـة والسلوى ، وخف عنهم بعض ما يشعرون به من ألم و كرب .

وكان خبر اليوم التالي عجيباً ، فقد أفاق من نومه فجأة ، وقعد على فراشه ، وظل يردّد ، هذه هي الجنة ، هذه هي الجنة ، هذه هي الجنة ، هذه هي الجنة ، وهو يشير بيديه إلى ما حوله ، ثم قال ، قد شرفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

٢١ – من ربيع الأول :

هب في الظهيرة مرة وهو يقول ، لقد متُّ ، فصلُّوا علي ، وإذا لم يكن هناك من يصلي ، فأنا اصلي بنفسي ، والمقتدون واقفون ، ثم كبّر وبدأ الصلاة ، فساور الناس القلق من فعلته هذه ، وظنوا لعلها بادرة من بوادر الأجل .

الحنين الى سماع الحديث الشريف:

وبعد لأي قال ، أليس هنا من يقرأ الحديث الشريف ؟ حتى ألفظ نفسي الأخير والحديث يشنف أذني .

٢٢ – من ربيع الأول :

كان يوم الجمعة ، مدّ بصره إلى ابنه ، ثم قبض بيده على يمينه

قبضاً شديداً، ثم ألقى عليه نظرة ثانية، وبعد ذلك سحب يده، وأغمض عينيه ، في الساعة الثالثة والنصف من هذا اليوم رفع بيديه، ورقّ للدعاء والإبتهال وقال: اللهم بارك في جميع مريدي ومحبيّ ، وأصدقائي وأحبـــائي ، وأقاربي ، واسعدهم بحسن الخاتمة ، آمين ، امين ، آمين .

الذكر الجلي :

في الساعة الرابعة والربع بدا منه التنفس ، وأمسى يذكر الله سبحانه ذكراً جلياً ، ويردد كلمة « لا إله الا الله »، وكان لا يذكر جلياً بخلاف عادته ، فإنه كان لا يذكر إلا سراً .

القبول العام وكثرة الزحام :

وكان عدد الوافدين والزائرين ، والعشاق والمحبين ، يزداد يوماً بعد يوم ، وكانوا يتساقطون عليه ، كما يتساقط الفراش على النور ، والظِماءُ على الماء الزُلال، كل واحد منهم يتمنى أن يسعد برؤيته ، ويوفق لخدمته ، وشاعت في البلد إشاعات عن وفاته عدة مرات ، فأخذ الناس هرج ومرج، وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وقام كل امرىء عن مكانه يسرع نحوه ، فحدثت بذلك صيحة في داخل الزاوية وخارجها ، وقد حضر أكثر مريديه ومحبيه ، في هذه المناسبة .

الحديث النبوي عند الوفاة :

فلما كان المساء ، انقطع الرجاء، وذكر الناس وصيته ، فقرأ بعضهم « كتاب الأربعين » «في الحديث»،وأمر ابنه أحد حضّار المجلس ، أن يتلو شيئاً من صحيح مسلم ، وأمرني أن اجهر به حتى يسمعه الجميع ، ولكني تهيبت ولم أستطع ذلك نظراً إلى حالة الشيخ المنهارة المنذرة بالخطر ، فما قرأت إلا صفحة واحدة من كتاب الإيمان ، وحديثاً من آخر الكتاب، وأنهيت الدرس .

ظل التنفس يشتد، وكان يرفع رأسه بين حين وحين، وطفق كل امرىء يقرأ ما بـدا له من سور القرآن والآيات الكريمة ، فمنهم من قرأ بالجهر، ومنهم من قرأ بالسر، ولم يكن في الحسبان أنها هي الساعات الأخيرة في عمره ، ولكن غشيتهم سحابة من الحزن العميق لما رأوا من حالته ، وانتهى سائر التدابير من غير جدوى ، غير ما كانوا يلقون في فمـه من عصير الرمان، حين كانوا يبسملون يفتح فاه بنفسه، فيلقى فيه العصير .

المحافظة الدقيقة على السنّة :

ورأوا أن يغيِّر إزاره بالسروال ، فأخذ بعضهم السروال ونزعه من رجله اليمنى ، فقبض هذه الرجل حالا ، ومد رجله اليسرى ، وذلك حرصاً على اتّباع السنة والتزامها ، حتى في هذا الوقت العصيب .

في ساعة الاحتضار :

فلما كان صلاة المغرب ، بدا أن ساعة الفراق قد حانت ،

فاتفقوا على ان يحوّلوا سريره من غير أن يشعر به احد ، فجعلوه شمالا وجنوباً، ووجه وجهه نحو القبلة، وبدت علائم الإحتضار، وكان يبدو واضحاً جلياً أنه كان يردد لا إله إلا الله خلال تنفسه، وكان ذلك شيئاً غير مألوف ، فما كان يذكر بهذه الطريقة ولا يجهر بها بل كان يُخفيها تمام الإخفاء .

أما الذين احاطوا بسريره ، فقد احاطت بهم سكينة وطمأنينة ، ذهبت بالخوف والحزن ، والهم والغم ، وكان فيهم عدد كبير من عشاقه ومحبيه، ولكنهم لم يكونوا يشعرون باليأس والإضطراب مطلقاً .

الى الرفيق الأعلى :

ورأوا في هذا الوقت عجباً ، فقد شهدوا ضوء القمر (وما كانت الليلة مقمرة) من خلال الشجرة المجاورة ، ولكنهم لم يفكروا (إلا بعد فوات الأوان) أنه كان مظهراً من مظاهر الرحمة الالهية ، وأنواره وتجلياته ، ليس غير ، وفي اثناء ذلك فارقت الروح جسده ، وهو يذكر الله مع شدة التنفس ، « إنا لله وإنا إليه راجعون»، وهنالك انبعثت من جسده رائحة عطرة، فما مسّت ثوب احد من جسده ، حتى تعطّر .

الحزن العميق مع اتباع الشرع الدقيق :

وبدأ الناس يتساقطون بعضهم على بعض ، وهم يبكون ، ولكن لم يظهر منهم ما يخالف السنة ، وهكذا طاب حياً

وطاب ميتاً، ولم تفته السنّة في مماته، كما لم تفته في حياته ، فمن صرخ مرة اغمي عليه ، أما الذين كانت أعينهم تفيض من الدمع، فقد كانوا مبهوتين صامتين، وكان الهنادك يبكون بجنب المسلمين ، اما النسوة اللاتي توجهن باكيات إلى الجنازة ، خرست ألسنتهن لمّـا وصلن إليها ، ولم تنطق شفاههن في هذا الوقت الا بكلمة لا إله إلا الله او الصلاة على رسول الله ، ولا غرو ، فإن الشيخ كان عدو النياحة والبكاء .

سحائب الرحمة والسكينة وآثار المغفرة والقبول :

وبات الجميع بجوار الجنازة ، واكتظ المسجـــد وخارجه بالوافدين، أما طمأنينة القلب وسكينة الروح، وسحائب الرحمة ، وأنوار السماء ، فلا تسأل عنها ، فكأن سرادقاً من النور ضرب أطنابه وغشي أصحابه ، فالذين حلّقوا حول الجنازة اشتغلوا بتلاوة القرآن ، وذكر الله ، وكان الجو صافياً ، لم يكدره همّ او حزن ، وكان يبدو انه لم يقع هناك حادث أليم ، وأن الشيخ يستريح شأنه كل يوم .

واستقر الرأي على ان يغسلوه في نفس المكان الذي توفي فيه ، وفي الصباح حملوه للغسل ، وحسر رداءه عن جسده ، فــــإذا وجهه وضيء مشرق كأنه وجه حي ، والعجيب ان خده الذي كان نحيفاً هزيلاً ، لكبر سنه وشدائد مرضه ، وفقد اسنانه ، عاد ممتلأ ناضراً وكان وجهه غضاً طرياً كالوردة لم يبق فيه للشيب أثر ، ثم غسلوه على وجه السنة ، وغمرت الناس عاطفة رقيقة ،

وشعور غريب ، بالسكينة والحنان، لا يوصف ولا يصوّر .

في جوار الله وأحضان رحمته :

وجيء بالجنازة بعد عناء شديد خارج المسجد ، ووضع على صفة باب المسجد للصلاة ، وصلى عليه ابنه الشيخ احمد ، ودفن عند الساعة التاسعة ، فلمـــا دفنوه ، وولوا إلى بيوتهم انبعثت شجونهم وأصبحوا في شبه ذهول لا يعرف بعضهم بعضاً ، فلما زار قبره الشيخ العالم الرباني محمد علي المونكيري (مؤسس ندوة العلماء وهو أكبر خلفائه، وتلاميذه الروحيين) عاودته ذكريات فأغمي عليه وأفاق بعد زمن غير يسير ، وزار قبره الشيخ العالم حبيب الله ، والد الشيخ الكبير حسين احمد المدني ، رحمه الله ، فأغمي عليه ، ولم يستطع المكوث طويلا وعاد إلى بلده .

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

المطبعة التجارية

بيروت ـ تلفون : ٢٢٤٧٣٩